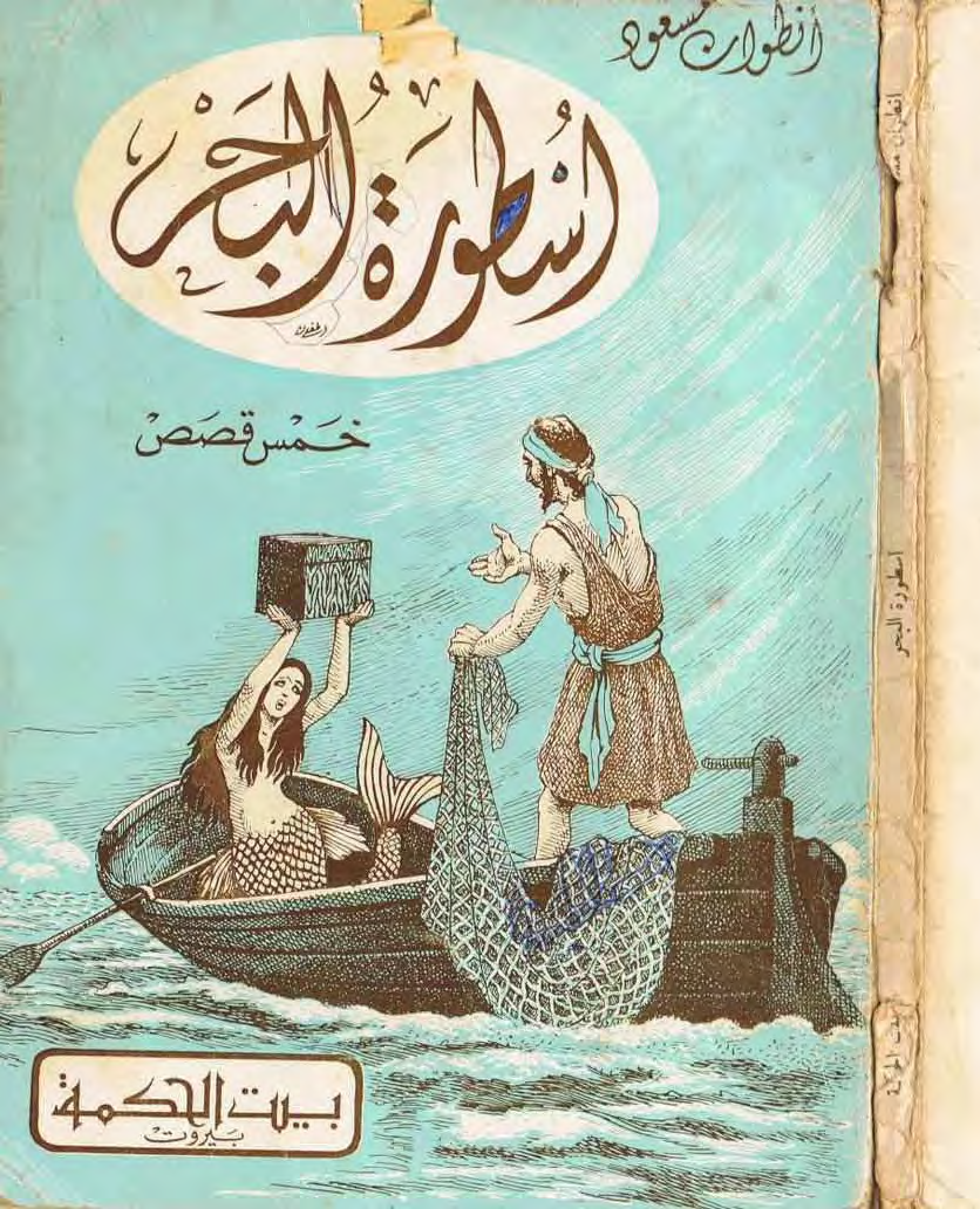


انطوان مسعود
أسطورة البحر
بيت الحكمة

منشوراتنا القصصية

١	يا بياع السمسمية	لجوزفين وانطوان مسعود
٢	ابو الخيمة الزرقاء	لجوزفين وانطوان مسعود
٣	حدثني يا ابي	لكامل العبد الله
٤	اسرى الغابة	لانطوان مسعود
٥	ملح ودموع	لانطوان مسعود
٦	يوم عاد ابي	لرشاد دارغوث
٧	صندوق أم محفوظ	لروز غريّب
٨	جدتي	لجبران مسعود
٩	عنب تشرين	لادوار البستاني
١٠	عازفة الكمان	لصموئيل عبد الشهيد
١١	وكان مازن ينادي	لتوما الخوري
١٢	كانت هناك امرأة	لرشاد دارغوث
١٣	يوم غضبت صور	لنضال ابي حبيب
١٤	بابا مبروك	لرشاد دارغوث
١٥	الانامل السحرية	لجوزفين مسعود
١٦	المغني الكبير	لروز غريّب
١٧	جلجامش	لتوما الخوري
١٨	نور النهار	لروز غريّب
١٩	النسر الكريم	لانطوان مسعود
٢٠	رنين الخناجر	لجوزفين مسعود
٢١	النجمتان	لروز غريّب
٢٢	اين العروس	لجوزفين مسعود
٢٣	جزيرة الوهم	لاملي نصر الله
٢٤	الغرفة السرية	لصموئيل عبد الشهيد
٢٥	النار الخفية	لروز غريّب
٢٦	الحاج بحبح	لرشاد دارغوث
٢٧	جوهرة الجواهر	لجوزفين مسعود
٢٨	دهليز الغرائب	لفكتور حكيم
٢٩	التجاريب	لولي الدين يكن
٣٠	الصحائف السود	لولي الدين يكن
٣١	سلسلة من حكايات بيدبا	(٦ كتب للاطفال)
٣٢	كوب من العصير	لجوزفين مسعود
٣٣	المنجم « عصفور »	لروز غريّب
٣٤	مغامرات أوليس	لتوما الخوري
٣٥	وطلع الصباح	لجوزفين مسعود
[illegible]	اسطورة البحر	لانطوان مسعود
٣٧	**الشريط المخملي**	**لجوزفين مسعود**

الثمن : ٩٠٠ ق. ل

أنطوان مسعود

أسطورة البحر

خمس قصص

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « رضوان الشهّال »

الطبعة الاولى ، بيروت – لبنان ، آذار (مارس) ١٩٨٠

... وباضت الدَّجاجة !

أوقفتُ سيّارتي وترجّلت . كنت قاصداً أحدَ الأصدقاء ، ولم أكن قد زُرت ذلك الحيَّ من قبلُ ، فكان عليَّ أن أسأل كي أهتديَ إلى موقع منزله نظرت من حولي فلم أرَ غير دكّانٍ لبيع الحلْوى ، تعلو مدخلَه لافتةٌ كُتب عليها بالخطّ العريض : « باتيسري بوب ـ بوظة وحلويات عربيّة وافرنجيّة ». فتوجّهت نحو الدكّان ، وتخطّيت عتبة بابه ، فشاهدت في صدر المكان رجلاً جالساً وراء مكتب مَعدِنيّ يقرأ جريدته . تقدّمت منه وحيّيته ، وهَمَمْتُ بالسؤال عن عنوان صديقي ؛ فلمّا رفع الرجل رأسه ليردّ عليَّ التحيّةَ ، بقي السؤال معلّقاً على شفتيَّ . هذا الوجه ليس غريباً عنّي ، ولكنّه بدا

لي كالذِّكرى العائدة من ماضٍ بعيد . ولاحظت أنَّ الرجل قد شعر بتردُّدي ، فحدَّق إلى وجهي ، ورأيت التعجُّبَ يرتسم على وجهه . ثمّ انفرجت أساريره ، فنهض وهو يناديني باسمي ، وتقدَّم منّي يضمُّني ويعانقني ويقول :

ـ أنا « إبراهيم » ، ألم تعرفني ؟ « إبراهيم س . » ، صديق طفولتك ، في الضيعة ! ...

بادلت الرَّجل تودُّده وعناقه ، ونظرت إليه مندهشاً : يا لَقَسْوةِ السِّنين ! تطغى على الناس فتبدِّل ملامحهم ، حتى لتعجز أحياناً عن تذكُّر مَن عَرَفْتَ ومن أحببت ! بالطَّبع عرفتُه ، ولكنْ بعد تردُّد كثير . ولو لم يبادرني بذكر اسمه ، لكنتُ بقيت فترةً قبل أن أتذكّره . قلت له بلهجة المعتذِر المُداعب :

ـ عفوكَ يا « إبراهيم » ! تسألني إذا كنت

أتذكَّرك ؟ وكيف أنساك ؟ ألم تقل إنّك صديق طفولتي ؟ وكيف ينسى الإنسان صديق طفولته ؟ ولكنّنا ، يا صديقي ، لم نلتقِ مرّةً واحدة خلال السنوات العشرين الماضية . وقد تغيَّرتْ ملامحك كثيراً : صَلِعْتَ وسَمِنْتَ . قلْ لي : هل أنت الزَّبون الوحيد في الدُّكّان ، تأكل كلَّ ما تصنعه من بوظة وحلويات ؟

ضحكنا طويلاً ، وربَّتَ « إبراهيم » كتفي وقال :

ـ إجلسْ ، ودَعْني أقدّم لك بوظة بحليب لم تذق مثلَها في حياتك ...

حاولت أن أعتذر ، متذرِّعاً بالموعدِ الذي قادني صِدفةً إلى دكّانه ، ولكنَّه ألحَّ في دعوته ، فقبلت . وجاءني « إبراهيم » ببوظة بحليب عربيّةٍ أصليّة مطيَّبة بالمِسْك ، ورُحنا نتحدَّث فيما كنت آكل

بسرعة خوفاً من أن يطولَ بي المُكوثُ ، فأتأخّرَ كثيراً في الوصول إلى بيت صديقي

قلت «لإبراهيم» :

ـ قرأت على اللافتة المعلّقة فوق باب الدّكان « باتيسري بوب » ، فمن يكون « بوب » هذا ؟ هل هو صاحب العمل ، أم ماذا ؟

قهقه « إبراهيم » ، وضرب ركبتيه بيديه ، وقال :

ـ لا يا أخي ، « بوب » و « إبراهيم » رجل واحد . ولكنّني آثرت اسم « بوب » عالِماً منذ البدء أنّ للأسماء الفرنجيّة وقعاً وتأثيراً في مجال هذا العمل . فهي تجتذب الزُّبُنَ أكثر من غيرها .

فرغت من تناول بوظة « إبراهيم » الشهيّة ، فودّعته بعدما دلّني على بيت صديقي . ولم يدعني أغادر دكّانه إلاّ بعد ما وعدته بالعودة إليه مع عائلتي لتذوّق المزيد من بوظته وحلوياته .

في طريقي إلى بيت صديقي ، الذي كان يبعد عن دكّان « بوب - إبراهيم » مسافةَ مئة متر ، فكّرتُ بالبوظة التي تناولتها لدقائقَ خلَتْ . وللحال حضرَتْني قصّةٌ من قصص الطفولة كان بطلَها صديقي « إبراهيم » عينُه ...

***

قبل خمس وعشرين سنةً كنت أصطاف مع والديَّ وإخوتي في قرية لبنانيّة هي مَسْقَط رأسنا . ثلاثة أشهر كنّا نقضيها في تلك القريةِ الرّائعة ، بعيدين عن هموم المدينة وصخبها ، ناعمين بجمال الطّبيعة وخيراتها ، برفقة أناس يعيشون في القرية صيفَ شتاءَ ، كانوا في تلك الحقْبَةِ أناساً بُسَطاءَ ، كُرَماء ، طيِّبين ، يحلو العيشُ معهم والتحدُّث إليهم .

وقريتي آية من آيات الجمال الطبيعيّ البِكْر ،

ولم تكن تَعرف في تلك السنوات من وسائل المدنيّة الحديثة غيرَ القليل القليل ؛ فلا كهرباء فيها ، وطُرقُها غير معبَّدة ، ووسائل النقل لديها أبسط ما يكون النقل في تلك الأيّام : « بوسطة » تنطلق من القرية عند الفجر لتعود إليها متأخّرة في المساء ، أو بعد حلول الليل أحياناً ...

كنّا سعداء لقضاء الأشهر الثلاثة في القرية بعد تسعة أشهر طويلة من العيش في المدينة الكبيرة . ومنذ اليوم الأوّل لوصولنا إلى القرية كنّا ننسجم مع القرويّين في عاداتهم وتقاليدهم ، فنعيش كما يعيشون ، ونأكل كما يأكلون ، ونتكلّم باللهجة القرويّة الحلوة كما يفعلون !

قلت إنّ وسائل المدنيّة لم تكن بعدُ متيسّرة في القرية آنذاك ، والسبب الأوّل في ذلك هو عدم وجود الكهرباء . وأذكر أنّ والدي اشترى لنا بَرّاداً

مصنوعاً من الخشب ، في جُزئه الأعلى مواسيرُ اتّصل طَرَفُها بحنفيّة الماء . فكنّا نضع على وجه تلك المواسير ألواحاً من الثلج تبرّد الماء وتحافظ على الطعام الموضوع في قلب تلك « العلبة الخشبيّة » الكبيرة . وأمّا الثلج فكان يأتينا مساءً مع البوسطة ، من قرية كبيرة ولكن بعيدة ، فيصل إلينا بعد أن يكون نصفُه ، أو أكثر ، قد ذاب .

وأمّا الحادثة التي عادت وقائعها إلى ذاكرتي بُعَيْدَ مغادرتي دكّانَ « إبراهيم » ، فقد وقعتْ في إحدى تلك الصَّيفيّات ، وكنت يومذاك في الثامنة من عمري تقريباً ...

كان لنا في القرية جارٌ يسمّونه « الحاجّ » ، يعمل في « بيروت » في محلٍّ تجاريّ . وكان « الحاجّ » يؤمُّ القرية في نهاية الأسبوع ، فيقضي مع عائلته يوماً أو يومين ، ثمَّ يعود إلى « بيروت » لمزاولة أعماله .

في مستهلّ ذلك الصيفِ حمل « الحاجّ » البهجةَ والسَّعادة إلى قلوبنا . فقد ذاع الخبرُ أنَّ « الحاجَّ » قد اشترى آلةً لتحضير البوظة العربيّة ، وأنَّه سيصنع البوظة ويبيعها من أهل الضَّيعة خلالَ إقامته القصيرة في نهاية كلّ أسبوع .

فرح الجميع فرحاً عظيماً ، لأنَّ معظم أهل القرية ، والصغار منهم بخاصّة ، لم يذوقوا طعم البوظة إلاّ نادراً ! فالقرويّون لا يَنزِلون إلى « بيروت » ، ولا يقصدون إلى القرى الكبيرة المجاورة، إلاّ عند مَسِيسِ الحاجة . فكان لخَبَرِيَّة البوظة ، والحالُ هذه ، وَقْعٌ عظيم !

وعلى الرّغم من كوني أعيش في المدينة ، أنعم فيها طوالَ أشهرٍ تسعة في السّنة بما تشتهيه نفسي من البوظة والحلويات ، فقد فرحت فيمن فرحوا ، وبِتُّ أترقَّب « يوم البوظة » الموعودَ بفارغ الصَّبر ...

... وجاء اليوم السّعيد ! إستيقظتُ عند الفجر على حركة « الحاجّ » وقد نهض باكراً وراح يُعدّ العُدَّة لتحضير بوظته . وكان « الحاجّ » قد أحضر معه ألواح ثلج كبيرةً . فإذا به ، في ذلك الصباح الباكر ، يبدأ بتكسير الثلج ليضعه في قالب البوظة ، فرحت أصغي إلى تلك الموسيقى الجميلة ، وأنا أتخيّل كلَّ حركة من حركات « الحاجّ » وهو في عمله « العظيم » ، وقد سال لُعابي !

في الثامنة صباحاً جلست مع أفراد عائلتي إلى المائدة لتناول الفَطور . ولكنّني ، على غير عادتي ، عجّلت في تناول طعامي ، وأكلت قليلاً ، ممّا أثار ابتسام والدتي التي كانت تعرف السّبب ، وهي التي وعدتني بإعطائي ما أحتاج إليه من نقود لشراء البوظة . وانطلقت كالسَّهم، وفي جيبي بعضُ القروش، إلى بيت « الحاجّ » الذي كان ، كما سبق وقلت ، قريباً جدّاً من منزلنا .

ومع أنّ الوقت كان مبكّراً ، فقد وجدت في باحة بيت « الحاجّ » حشْداً من الناس ، كباراً وصغاراً . ألكبار كانوا كلُّهم يأكلون . وأمّا الصّغارُ فكان بعضُهم مُمسِكاً بـ « قَرْن » البوظة ، يلتهمه بنَهَم ، والبعض الآخرُ ينظر إليهم بحسرة ، يتلمّظ ولا يأكل . عيون المحرومين كانت عالقةً بالبوظة العجيبةِ . كانوا يتتبّعون مَسيرتها من الأيدي إلى الأفواه ، حتى إذا ما سالت في الأحلاق ابتلعوا هم أيضاً لُعابَهم وكأنّهم يأكلون ! وكان صديقي « إبراهيم » من بين الواقفين المتفرّجين... فوَضْعُ عائلته لا يسمح بالتّبذير ، فلا قروشَ ، ولو مَعْدُوداتٍ ، تُنفَق على شراء الكماليّات مثل البوظة ...

وقفت إلى جانب « إبراهيم » وبيدي « قرنُ » بوظة بيضاءَ عَطِرَةٍ ، ولم يخطر ببالي أنَّ صديقي كان ينظر إليَّ خلْسةً وأنا منصرفٌ إلى التهام حصّتي

بنهم وتلذُّذ . وشعرت « بإبراهيم » يهزّ يدي ويقول بصوت منخفض خَيِّي :

ـ طيِّبة ؟

ـ ماذا ؟

ـ ألبوظة !

ـ لذيذة !...

ـ عطِيني شي لَحْسَة كَخَيِّي !.

أعطيته « لحسةً » فاستساغ طعمَها . نظر إليَّ وكأنَّه يطلب المزيدَ من « اللَّحْس » ، وشعرتُ بذلك الخطرِ الذي قد يحرمني قِسطاً من بوظتي الشهيَّة ، فقلت له بمنطق الأطفال السّاذَج :

ـ خَيِّي « إبراهيم » ، قُول « للحاجّ » بيعْطِيك بدون مَصاري ، رُوحْ ، ما تخافْ ...

إقتنع « إبراهيم » بمنطقي ، ولكنَّه كان كبير النَّفْس ، فتردَّدَ في بادىء الأمر ، ثمَّ تحرَّك باتّجاه

« الحاجّ » ، وهمس في أذنه كلاماً لم أسمعه ، ولكنَّني سمعتُ كلام « الحاجّ » الذي دوّى في باحة البيت لاذعاً :

ـ روحْ ولا ! ما فِيش بوظة ببلاش .

وأردف « الحاجّ » ، بعدما استدار « إبراهيم » عائداً صَوبي مكسورَ الخاطر :

ـ عند أمّك دَجاجاتٌ تبيض بيضاً بصفارين ، تبْقَى جِيبْ معك بيضة أو بيضتين ، بَعطِيك بوظة قَدْ ما بَدَّك !

مسكينٌ « إبراهيم » ! من أين له أن ياتي بالبيض ، وأمُّ « إبراهيم » تجمع البَيض وتبيعه !؟

مضى ذلك اليومُ ، ومضت بعده أيامٌ نسينا خلالَها البوظة . وعُدْنا نتذكّرها عندما كاد الأسبوعُ ينقضي مُؤْذِناً بعودة « الحاجّ » إلى القرية لقضاء

عطلته الأسبوعيّة .

وصل « الحاجّ » عشيَّةَ السبت ، وكنّا ، نحن الأطفالَ ، قد تجمهرنا كالمعتاد في ساحة القرية ننتظر وصول البوسطة ، شاهدناه ينزِل ، ثمَّ ينقل بجهد ألواحَ الثّلج الثّقيلةَ من البوسطة إلى بيته . وكانِ صديقي « إبراهيم » واقفاً إلى جانبي ، فهزَّ يدي ، فنظرت إليه ووجدته قد فَغَرَ فاه وجحظتْ عيناه ، وتمتم كلمتين اثنتين :

ـ بكْرا بوظة ...

في صَبيحة اليوم التالي أفقتُ على صوت « إبراهيم » يناديني ، فخرجت أسأله عمّا يريد ، فقال :

ـ تَعا معي ، الله يخلّيك ...

وشعرت أنَّ في الأمر سرّاً لا يريد « إبراهيم » البوحَ به ، فخرجت أسأل « إبراهيم » ثانيةً عن سبب



مجيئه المبكّر ، فقال :

- إسمعْ ! قرّرت أن أحمل اليومَ إلى « الحاجّ » بيضةً أو بيضتين فيعطيَني مقابلَ البيض بوظةً كما وعد . لقد ذهبت أمّي إلى الحقل ولمّا تَعُدْ . تعالَ معي إلى « المدّ » ننتظر البيّاضات لتبيض ...

فهمت حيلته ! كنت أحياناً أذهب إلى بيت « إبراهيم » لألعب معه ، وكانت أمّه تصرفنا لنلعبَ في « المدّ » كي لا نضايقها في عملها . فوجودنا في « المدّ » إذاً لن يُثيرَ تساؤلَها إذا ما عادت من الحقل فجأةً .

ذهبت مع « إبراهيم » ، فدخلنا « المدّ » بخطى وئيدة كمن يدخل إلى مَعْبَد ، وقبَعْنا في زاويةٍ ننظر صامتين إلى خُمّ الدجاج ، وننتظر . كنت أشعر بما لتلك اللّحظاتِ من أهميّة بالنسبة إلى صديقي ، ولذلك فقد تمنّيت أن يوفّق في تنفيذ

مخطّطه . ومرّت الدّقائق بطيئةً مُمِلَّة . وكأنّي
بالدجاجات شعرت بتأزُّم الوَضْع ، فاضطربت هي
الأخرى ، وباتت عاجزةً عن إعطاء البيض ! وطال
بنا الانتظارُ ، فلم أُطقْ صَبْراً . وخطر ببالي
خاطرٌ مُخيف : إذا تأخَّرْتُ هنا في هذا المكانِ
فقد تَنْفَدُ كميّة البوظة التي صنعها « الحاجّ » .
يا لَلْهَوْل ! ...

نهضت لتوّي وقلت « لإبراهيم » إنَّ حاجة
ضروريّة تُلحّ عليّ بالعودة إلى البيت ، وخرجت
وأنا أنوي الذهاب إلى بيت « الحاجّ » . ولكنّني ما
كدت أطأ عتبة « المدّ » وأغلق الباب حتى سمعت
« إبراهيم » يصرخ من الداخل ، وهو يستوقفني
بصوتٍ هَدَّجَه التأثُّرُ :

ـ وَقّفْ ! وَقّفْ ! باضت الدجاجة بوظة !..

نظرت إلى « إبراهيم » فرأيته يحمل بكلتا يديه

بيضةً كبيرةَ الحجم ، من فئة البيض بصفارين التي
اشتهرت بها دجاجاتُ أمّ « إبراهيم » ، وكأنَّه يحمل
كنوز الأرض قاطبةً !...

إنطلقنا إلى بيت « الحاجّ » و« إبراهيم » أسعد
خلْقِ الله ... وصلنا فإذا باحةُ البيت فارغة : لا
« الحاجّ » هناك ولا الزُّبُن المعهودون . وبعد برهة
خرج « الحاجّ » ، فبادره « إبراهيم » بالقول :

ـ عمّي « الحاجّ » ، جِبْتِلَّك بيضة بصفارين .
بدّي بوظة عمّي « الحاجّ » .

قال « إبراهيم » هذا ووقف ينتظر الجواب ،
وعيناه عالقتان بشفتَي « الحاجّ » . ولكنّ « الحاجّ »
قال متأفّفاً :

ـ رُوح ! أليوم ما فِيش بوظة . الآلة معطّلة .

وقع النبأ على « إبراهيم » وقوعَ الصاعقة ، ولم
يتمالك أعصابه ، فبكى ... فأشفق « الحاجّ » عليه

وقال له :

ـ هاتِ البيضةَ يا « إبراهيم » ، وأنا أعدك بأنّي، في الأسبوع المقبل، ساعطيك من بوظتي مـــا تطلبه وأكثر . إذهب الآنَ وجفّف دموعك . . .

عاد كلٌّ منّا إلى بيته . وأمّا « إبراهيم » فقد مضى يجرُّ ذيلَ الخيبة ، ولكنّ في أفقه نورَ أمل أكيدٍ ؛ فهو ، ولا ريبَ ، سيبقى ، طوالَ أسبوع، يفكّر بالبوظة الموعودة التي ستكون من نصيبه . . . بعد أسبوع

***

تبدّدت غمامات ذكرياتي وأنا أطأ عتبــة منزل صديقي . دخلت وسلّمت ، ثمّ جلست مع أهــل الدّار . وقدَّمت لي ربّـةُ البيت قَدَحاً من البوظة العربيّـة المطيَّبة ، فإذا بها من نوع تلك البوظة التي تناولتها لفترةٍ قصيرة مضت عند « إبراهيم ـ بوب » ،

رفيقِ صباي ! ولم أستطع أن أكتم ما كان يدور في خَلَدي ، فابتسمت وسألت مُضيفي :

ـ من أين هذه البوظة ؟

فارتسم على وجهــه بعضُ القلق ، وردّ عليَّ بسؤال :

ـ لماذا ؟ ألم تعجبــك ؟ ألمفروض أن تكون أطيبَ بوظة من نوعها ، يصنعهـــا حَلْوانيٌّ ماهر اسمه « بوب » .

عند ذلك ضحكت ، ورويت له قصّة « إبراهيم ـ بوب » مع البوظة . . . وأصغى إليَّ صديقي من غير أن يقاطعني ، ثم قال :

ـ أخـــبرني ماذا كان من أمر « إبراهيم » ؟ ألم تقل إنّه كان عاثرَ الحظّ ، فعاد من عند « الحاجّ » صفرَ اليدين ؟ ماذا جدَّ يومذاك ، وبعــد مرور أسبوع على تلك الحادثة ؟

ـ بعد أسبوع ، كان « لإبراهيم » ما أراد . ففي

يوم البوظة المعهود لم يقف « إبراهيم » كما كان يقف من قبلُ ، بين آكلي البوظة ، متفرّجاً متشهّياً ، بل كان صِنْواً لهم يأكل متلذّذاً سعيداً . وأغربُ ما في الأمر أنّ الصبيّ بات بعد ذلك من زُبُن « الحاجّ » الدّائمين ، لا لأنّه كان يختلس البيض ويأتي به إلى « الحاجّ » ، كما فعل في المرّة الأولى ، بل لأنّ أمّ « إبراهيم » شُغِفت هي الأخرى بتلك الحلوى البيضاءِ المسكّة المثلّجة ! فكانت ، كلّما آذن فجرُ يوم البوظة بالشروق ، تضع في سلّةٍ صغيرة ما جمعته خلال أيّامٍ من بيضات ثمينات ، تدفع بها إلى ابنها ، فيعدو « إبراهيم » إلى بيت « الحاجّ » ويعود بكميّة وفيرة من المثلّجات ، يلتهمها مع أمّه وإخوته .

في تلك الصّيفيّة أطلق الصِّبْيةُ على « إبراهيم » كُنْيةً لطيفة : سمّوه « بو بوظة » . . . فتلبّستْ تلك الكُنيةُ « إبراهيم » ، فلم تزعجه ، بل راقَتْه ، وكانت تُثلج صدره ، فيبتسم لها ، ويباهي بها ويفاخر . . .

بعد انتهاء قصّتي ، أطرقت برهةً ثمّ قلت لصديقي :

ـ أنا معجبٌ كلّ الإعجاب « بإبراهيم » ، بعدما ذكرت لي أنّه السّاعةَ مشهورٌ بصنع البوظة . هنيئاً « لإبراهيم » رفيقِ صباي ، لأنّ مَن عرف الفرح في شأن من شؤون حياته ، وكان دائباً على إشراك الناس فيه ، جديرٌ ، واللهِ ، بالإعجاب والتقدير . . .

أدهم

من الوجوه الأليفة التي انطبعتْ في مخيّلتي ، والتي تتمثّلُ أمام ناظريَّ كلَّما تذكَّرتُ ذلك المَصيفَ اللبنانيَّ الجميلَ ، وجهُ « أدهمَ » بائعِ العلكة الصغير . كان يجوب شوارع البلدة ، من غير مَلل ولا كلَلٍ ، طوالَ أيّامِ الصيف ولياليه ، يعرض على المصطافين علكته مصفوفةً بترتيب في صندوق صغير ، ويتدفّق من لسانه سيلٌ من الكلام المعسول يشجّعُ السّامع على الشّراء ، وعلى شفتيه ابتسامةُ الإعْجاب ببضاعته .

و « أدهمُ » الصغيرُ في السادسة أو السّابعة من عمره ، قصيرُ القامة ، صحيحُ البِنْية ، ذو بَشَرةٍ

سمراءَ قاتمةٍ تكاد تكونُ سوداءَ ، قـد اجتاح شعرُه أكثرَ جَبْهتِه ، وانسدلَ هالةً حالكةً حول مِحْجرَين غائرَين تلألأتْ فيهما عينانِ صغيرتان متّقدتان فِطْنةً وذكاء .

وكثيراً ما يتمّ لقاؤك « بادهمَ » في جوٍّ مشحون بالبكاء والعويل : فهو تارةً يستدرُّ عطف النـــاس ورضاهم ، وتراه تارةً أخرى يزعجهم بلسانه الزّلِق المِطْواع وحركاتهِ الخبيثة المثيرة ؛ فـلا يلبثُ ، من وقت إلى آخرَ ، أن يقعَ بين يدَي أحد الغاضبين ، فينال نصيبَه من ركلٍ ولكْمٍ وصفْعٍ ، حتى تتورّدَ وَجْنتاه ، وتنهمرَ دموعُه ، ويسيلَ مُخاطُه ، فيلوذ بالفرار مُهرْولاً ، حاملاً بيُمناه علبة علكته ، ورافعاً باليُسرى أطراف سرواله الواسع ، وهو يتلفَّت إلى ضاربه ؛ حتى إذا ما وصـــل على مسافة منه تَقيه شرَّه ، توقَّفَ وطرح عنه علكتَه ، ثم راح يلعن ضاربه ويشتمه مُزْبداً صاخباً ، ملوّحاً بيده في الهواء تهديداً ،

دائماً كلامَه وإشاراتِه بوابل من الحجارة أو أيِّ نوعٍ آخرَ من القذائف التي تقـــع عليها يداه . وهكذا يخرج « أدهم » من المعركة ــ وهـــو الذي ذاق من الضرب أمرَّه ــ منتصراً من الناحية المعنويّة ، وقـد اطمأنَّ إلى أنَّ نار الحقد والغضب قد زادت تأجُّجاً في صدر ضاربه ...

وأوَّلُ ما يسترعي اهتمامك في شخصيَّة « أدهم » العجيبِ صراحةٌ فِطريَّة لا يشوبها مَكرٌ ولا رياء . تسأله فيجيبك ، إذا استطاع ، بطلاقة ومن غـــير التواء ، حتى ولو تطرّقتَ بأسئلتك إلى صميم حياته الخاصّـــة : فهو يصارحك بدقائق شؤونه الشخصيّة الحميمة ، أو يحدّثك ، إن شئتَ ، عن أفراد عائلته ، فيصفهم لك واحـداً واحـداً ــ وعـــددُهم يتجاوز العشرة ! ــ مُراعيـــاً في كلّ مرّة أصولَ النقد أو المدح .

و« أدهمُ » ناطور البلدة ومُختارها إلى حدّ بعيد ،



تساله عن أيّ إنسان فيهـــا فيجيبك ، ويُدلي إليك بفَيض من المعلومات والتفاصيل يُذهلك ؛ وهـــو يبتسم بحنان إذا كان مَن تسال عنه من خاصّته ، أي من الذين « ينفعونه » ، ويكشّر إذا كان الشخص المقصود بخيلاً شرسَ الطّباع . وهو ، في ذلك كلّه ، يصفُ وَصْفَ النـــاقد الأمين ، وفكرُه شاردٌ ، وعيناه محدّقتان ، ولسانُه مطيّة لمخيّلته الخصْبة .

وضحكتُ مرّةً عندما رأيت « أدهمَ » يدخـــل بسرعةٍ حديقةَ الفندق التي جلست فيها مـــع بعض الأصدقـاء ، وكان الوقت مساء . فدَسستُ يدي في جيبي أبْحث عن بعض النقود لأشتريَ بعضـــاً من علكته . ولكنّـه استَمْهَلني رافضاً بحركة من يده ، وانتصب أمامي في حـــيرة ظاهرة ، وعلى شفتيه سؤالٌ . قلت :

ـ ما بك يا « أدهمُ » ؟

أجاب على الفور ومن غير مقدّمة :

- أتوصلني بسيّارتك إلى « العين » (وهي قرية مجاورة) فأُعطيك ليرة ونصفاً ؟

ضحكت طويلاً ، ثم سألته :

- ماذا تراك تفعلُ في « العين » في هذه الساعة المتأخِّرة ؟

أجاب ووجهُه يطفح بهجةً وأملاً :

- في « العين » عيدٌ احتفاليّ هذه الليلةَ ، وسأبيع حتماً علبتين من العلكة ، أربح منهما ثلاثَ ليرات ، أعطيك نصفها ، وأحتفظ لنفسي بالنصف الآخر .

أُعجبت باندفاعه الدائم في اقتفاء الكسب والفائدة ، ووددت في تلك اللحظةِ أن أحقِّق رغبته ؛ فنصحتُه بالذهاب إلى شابٍّ أعرفه كان جالساً في رُكن آخرَ من الحديقة ، وهو من سكّان « العين » ، فسارع « أدهمُ » إليه . وما هي إلاّ لحظةٌ حتى وجدتُ « أدهمَ » ينظر إليّ وهو يبتسم ابتسامةَ

المنتصر . وقد علمت في اليوم التالي أنَّ الشابَّ قد أوصل « أدهمَ » إلى « العين » كما أراد ، ومن غير مُقابلٍ طبعاً !..

***

و« لأدهمَ » الصغيرِ ألفُ وجهٍ ووجه . « فأدهمُ » الذي مرّ بك البارحة بسرعة البرق بعد ما نظر إليك نِظْرةَ قردٍ وهو يحوِّل عينيه ويحرِّك أنفه بطريقة مضحكة ، « أدهمُ » هذا غير « أدهم » الذي تراه اليومَ يتقدَّم نحوك بتأدُّب واحترام ، يخاطبك باسمك ، ويعرض عليك بكلِّ وقارٍ علكته المعهودة . ويَعْجبُ الكثيرون ، ممّن رأوه مرّةً أو اثنتين ، لهذا التغيير ، ولكنَّ الذين يعرفونه حقَّ المعرفة لا يتعجَّبون ؛ فحالتُه تتقلَّب مع ظروف حياته المتقلِّبة : فهو حيناً حانقٌ باكٍ ، يسخط ويلعن ، وفي ظروف أخرى تراه هادئاً رزيناً ترتسم على وجهه ملامحُ الجدّ والوقار ، وكثيراً ما يناديه بعضهم في تلك الساعة

التي تهدأ فيهـــا أعصابُه ، فيشترون منـه علكاً ، ويتبادلون معه بعض الحديث . وكثيراً ما فعلت أنا ذلك ، بعد ما خصَّني « أدهمُ » بثقته واعتبرني من أصحابه . وهكذا صرت أعرف الكثير من طباعه وعاداته : فهو مثلاً شديدُ الوَلَع بالحساب ، يحفظ عن ظَهْر قلبٍ ما باعه منذ أيَّام بالليرات والقروش ، وما حقَّقه من ربح في تجارته الصغيرة . وذاكرتُه القويّة لا تخونه في عمليّاته الحسابيَّة إلاَّ نادراً ، وإن هي خانته حيناً تراه ينتزع من داخل قميصه كيساً صغيراً معلَّقاً بخيط حول عنقه ، فيعدُّ ما فيه من قطع النقود الرنَّانة ، ويبتسم راضياً بنجاحه .

وعلى ذكر الحساب ، « فادهم » لا يحسب نقوده وحدَها بدقّة ، بل هو يتعدّى هذا العملَ السَّهل إلى أصعبَ منه : إنّه يقف أمامك يجمع الأرقام مُضاعِفاً النتيجةَ في كلّ مرّة ، مبتدئاً من «١» إلى أن يصل إلى المئة ألف : ١ و ١ = ٢ ، ٢ و ٢ = ٤ ، ٤ و ٤ = ٨ ، ٨ و ٨ = ١٦ ، إلخ . . وهو يُجري حساباتِه بثقة وعزم ، ويُدلي إليك بحاصلاتها بسرعة هائلة ؛ حتى أنّه ، في الكثير من الأحيان ، يَضيق بـه التنفّسُ لفَرْط سرعته ، ولكنّه يتابع عمليَّة الجمـع وهو يتنفَّس الصُّعداء ، فيكون منظره غريباً مضحكاً . . . وسالت « أدهمَ » مرَّة كيف تعلَّم الحســاب بتلك المرونةِ والدِّقَّة ، فعلمت منه أنَّه يذهب إلى المدرسة في الشتاء ، وأنّه يُكِبُّ على الدرس بملء جوارحه ، وأنّه إن كان يبيع علكته في الصيف فلادّخار مالٍ يمكّنه من شراء لوازمه المدرسيّة في الشتاء . ويشرح لك « أدهمُ » مشروعاتِهِ المستقبليّة باقتناع وإيمان ، فهو عازم على متابعة دروسه لتكونَ له مكانةُ المثقَّف في المجتمـع الراقي . . .

ويذهب عنك « أدهمُ » وفي عينيه بريقُ حنون لما حرَّكتَه في نفسه من أحلام مستقبله البعيد . وتنظر أنت إليه وفي نفسك حسرةٌ ، فالذي يبيع علكاً في

سنّ السابعة لتوفير مالٍ ينفقه بعدئذ على شراء الكتب والورق والأقلام ، لا ضمانةَ لمستقبله غيرَ تلك الأحلام البعيدة التي تداعب خياله البريء الساذج ، والأحلامُ قد تتحقّق أو تندثر ...

* * *

إنقطعتُ عن الاصطياف ، وتباعدتْ بالتالي زياراتي إلى ذلك المصيف الجميل الذي قضيت فيه أوَيقاتٍ حافلةً بالرّاحة والانشراح . ونسيت « أدهمَ » نسياناً كاد يكون كاملاً ... إلى أن كان يومٌ التقيتُ فيه « جميلاً »، أحدَ رُفقاء الصيف القُدامى ، وكان ذلك بعد مرور عشرين عاماً على مشاهدتي « أدهمَ » لآخرِ مرّة . ومشيت ورفيقي رَدَحاً من الوقت نستعيد بعض الذكريات . وفجأة استوقفني « جميل » وقال :

ـ أتذكر « أدهمَ » بائعَ العلكة ؟

ـ « أدهم » ؟ تعني صديقي « أدهم » ؟ وكيف أنساه ؟

ولكن لماذا تسألني الآنَ عن « أدهم » ؟ هل أصابه مكروه ؟

فكّرت ، أوّلَ ما فكّرتُ ، بالمكروه مقروناً بذكر « أدهمَ » ، لأنّني طالما عرفت الصبيَّ شقيّاً مُعدِماً ، وما من مدبّرٍ يُعنى بأمره ليُنشّئه التّنشئةَ الصّالحة . فما كان من « جميل » إلاّ أن ضحك وهزّ رأسه :

ـ لا يا صديقي ، لا ... إنّ « أدهم » لم يُصب بمكروه أو بأذى ، بل بالعكس . إنّه اليومَ على خير ما يُرام ... أنت تعرف أنّني كنت ، لسنواتٍ خَلتْ ، مدرّساً في المدرسة الرسميّة بالقرية ، وأنّي كنت أطمح أبداً إلى التعليم في تلك الثانويّة الكبرى القائمة على أرض شاسعة من مصيفنا ، والتي تحتلّ مكانةً مرموقة بين المدارس اللبنانيّة . ومضت سنواتٌ وأنا لا أوفَّق في مَسعاي . ولكنّني بقيت أحاول ،

فتحقّقت رغبتي في مستهلّ السنة الدراسيّة الماضية ، وكان ذلك بفضل صديقنا « أدهمَ » ...

ـ ما علاقةُ « أدهمَ » بالموضوع ، و ...

ـ دعْني أكمل قصّتي : على أثر انتهاء السنة الدراسيّة منذ عامين ، ذهبت إلى الثانويّة أعيد الكرة ، وأطرق باب التعليم فيها . وكان عليّ أن أقابل مديراً للتوظيف كان قد عُيّن حديثاً . دخلت على المدير ، وبعد السلام وقفت أحدِقّ به وأنا لا أصدّق ما تراه عيناي . لم يكن المدير سوى « أدهم » عينِهِ ! فقد استوى على كرسيّ وثير ، وراء مكتب احتلّ مساحة كبيرة من الغرفة . وعرفني « أدهمُ » بعد تردُّد وجيز ، فهبَّ من وراء مكتبه يرحّب بي أجملَ ترحيب ، وأنا في حال من الذّهول الشّديد . وحدَّثني « أدهمُ » عن نفسه ، وعلمت منه أنّه كافح وشقي حتى أكمل دراسته ، ثمّ سافر إلى الخارج

وعاد بعد سنوات يحمل شهادة تخصُّص فتحت أمامه أبواب العمل في المؤسّسات الكبرى ؛ ولكنّه آثر العمل في الثانويّة ، وفي القرية التي كانت مهداً لطفولته ، ومرتعاً لصباه ، ومسرحاً لشؤونه وشجونه ...

أُسطورة البحر

في الزّمان الغابر لم تكن مياه البحر مالحةً كما هي اليوم . كانت البحـــار آنذاك مساحاتٍ من الأرض شاسعةً مغمورةً بمياه رقراقةٍ زرقاءَ ، عذبةٍ كميـاه الجداول والأنهار . ولم يكن الناس يعرفون الملح ، فكانوا يطيّـبون أطعمتهم بما تيسَّر لهم من توابلَ .

في ذلك العصرِ عاش صيّاد فقير في كوخ حقير قائم على شاطىء أحدِ تلك البحار . كان يتكسَّب من غلّة صيده : يصطاد السّمك بصَنانـيره وشِباكه ، فإن كان الصيـــد وافراً باع معظمه وحقّـق لنفسه بعضَ المكسب ؛ وإن ضنَّ عليه البحرُ اكتفى ذلك المسكينُ بسمَـكاتٍ ، ولو قليلاتٍ ، يسدّ بها رمقه

بقي الصيّاد على تلك الحال راضياً غير شاكٍ . إلى أن كان يومٌ غيّرت أحداثُه حياتَه تغييراً كاملاً .

في صبيحة ذلك اليوم خرج في قاربه كالمعتاد ، ولم يكن قد اصطاد ، لأيّام خلتْ ، غيرَ أسماك صغيرة معدودة . كان الحرّ شديداً ، وكان البحر أرجوحةً وثيرةً ساكنة ، تحرّك مياهَه نسمةٌ بَليلة تُثلج الصدور . وما إن توغّل الصيّاد في قلب اللُّجّة حتى ألقى نظرة إلى الوراء ، فلاحت له بيوتُ الشاطىء وأكواخُه وقد تضاءل حجمُها ، واحتجب الصوتُ فيها والحركةُ . وقف في وسط قاربه وتنشّق الهواء المنعِش ملءَ رئتيه ، ثمّ توكّل على الله وألقى شباكه ، فغاصت في اليمّ ، ولم يبقَ ظاهراً منها غيرُ عوّاماتِها المجوّفة التي طفت على سطح الماء وهي تتراقص مترنّحةً ناعسة . وجلس الصيّاد ينعم بالسكينة والرّطوبة ، وينتظر رزقه بطول أناة . وكانت الأسئلة تصطرع في ذهنه : « هل أوفّق اليوم بصيد

حسن ؟ تُرى ، هل أبيعُ اليوم سمكاً يدرّ عليّ مالاً أدّخره لوقت الحاجة ؟ أم أنّني سأعود صُفْرَ اليدَين ؟ »

لم يكن الصيّاد ليجدَ جواباً عن أسئلته ، فتنهّد مُتحسّراً ، وانطلقت من صدره زفرةٌ طويلة ، وقال بلهجة الضّارع المتلهّف : « أيُّها البحرُ ، أيُّها الجبّار العظيم ! يا من يخبّىء في بطنه أعظمَ الكنوز وأعجبَها ! أنا لا أطلبُ أن تقاسمني كنوزك وغناك ، فأنا فقير راضٍ بمصيري ، ولا ألجأ إليك إلاّ لأستعطفك وأسترضيك . هلاّ أعطيتَني اليومَ قِسطاً يسيراً ممّا لديك ، علَّ ذلك يبعث فيَّ الرّجاءَ ويَقيني المذلّة والشّقاء ؟ » وبقي الصيّاد مسترسلاً في تأمّلاته ، والقارب يُهدْهِده برِفق ، حتى انسدل جفناه ، فنام .

مضت ساعةٌ وبعضُ السّاعة ، والصيّاد غارق في

سُبات عميق . وفجاةً اهــتزّ القارب واضطرب ،
فأفاق الصيّاد مذعوراً ، يفرك عينيه مستطلعاً . ونظر
من حوله فوجد المياه تصطخب في المكان الذي ألقى
فيه شباكَه ، فسمّرتْه الدهشةُ . ثمّ سمــع أصواتاً
غريبة وكانّ فيهــا ولْولةً ونحيباً ، فأصابه ذعرٌ
كثير !

راح الصيّاد يسحب شباكه بيــدين ملهوفتين ،
ولكنّ الشباكَ كانت ثقيلة ، وهو لم يشعر قطُّ بمثل
هذا الثّقل من قبلُ . وتصبَّب العرقُ من جبينه ،
وبدأت قواه تخور . ولكنّه تجلَّــد وبقي يكابد
المشقّة والتعب حتى تمكّن في النهاية من سحب شباكه .
ويا للدَّهشة ! ماذا رأى ؟ لم يصدّق الصيّاد عينَيه :
فقد شاهد حوريَّةَ بحرٍ حسناءَ قد علقت في طيّات
شباكه ، تتخبّط وتحاول الإفلات ، وقد بدا اليأس
في عينيها الجميلتين ، وذيلُها الطويل اللمّاع يضرب
الشبكة في كلّ اتّجاه ! وكانت الحوريّة في محاولاتهــا
اليائسة تئنّ وتنتحب بعدما أدركت أنّها هالكةٌ لا

مَحالة . إنّه لصيدٌ عجيب حقّاً !

شكر الصيّاد البحرَ على هديّته الثمينة ، وراح
يعالج الشباك حتى أخرج منها الحوريّة التي ما لبثت
أن استقرّت في قعر القارب . حدّق إليها الصيّادُ
وفي رأسه ألفُ حلم وألفُ حساب : « إنّها لمعجزةٌ !
ساعرض هذه الحوريّة للبيع ، فيُقبل أغنياء المدينة
على شرائهــا . يا إلهي ! لقــد تحقّقت أمنيّــاتي ،
وساصبح غنياً بين الأغنياء » . ولكنّ الحوريّة قطعت
عليه أحلامه ، فقالت بصوت متهدّج :

ـ أيّهــا الصيّادُ الطيّب ، أرجوك ، دعْني
وشــأني ! ماذا تفيد منّي إذا سلختني عن بحري
وأترابي ؟ أنت ، ولا ريبَ ، تحلم بالشُّهرة والمال ،
فدَعــني أمضي في سبيلي وساكافئك ، إن فعلتَ ،
أعظمَ مكافاة .

ـ تكافئيــنني ؟ وكيف ؟

ـ أعطيك آلة سحريّة تصنع مسحوقاً لم يرَه ولم

يدرِ به أحدٌ قبلَ اليومِ . إنّه مسحوقٌ أبيضُ نصنعه في عالمنا المسحور ، في مغاورنا السحيقة تحت قعر هذا البحر . وهذا المسحوق ، الذي نسمّيه ملحاً ، يُرَشُّ على الطعام فيستسيغ الناسُ طعمه . إنّه يحسّن طعم المأكولات ويطيّب مذاقها . دعني أذهب فأعطيَك الآلة السحريّة التي تصنع لك الملح متى شئت ، فتبيعه وتُصيب منه أرباحاً طائلة ، وتكون قد أعتقتَني وأنقذت حياتي . خُذْ شيئاً من هذا الملح وذقْه ، خُذ ...

تناول الصيّاد قليلاً من الملح الذي قدّمته له الحوريّة ، ورفعه إلى شفتيه ، فإذا له طعم غريب لم يَعهَدْه من قبلُ . واستزاد الصيّاد من الملح فازداد به رغبةً وإعجاباً . وفكّر ملياً بما عرضته عليه الحوريّة ، ثم قال لها :

ـ أين الآلةُ التي تصنع هذه المادّةَ الطيّبة ؟

ـ ها هي . إنّها لك . خذها وأَطلِقْ سَراحي .

وضعت الحوريّة في يد الصيّاد عُلبةً من خشبِ الأبنوس المطعّم ، جميلةَ الصُّنع والزّخرفة ، ففتحها ، ووجد في داخلها آلةً من المعدِنِ المذهّب ، غريبةَ التكوين ، كثيرةَ التعقيد . قال للحوريّة :

ـ حسناً ، ولكن كيف أستخرجُ الملح من هذه الآلة ؟

ـ أتُقسِم بشرفك بأنّك ستطلق سراحي إذا أطلعتك على سرّ الآلة ؟

ـ نعم ، أُقسم بشرفي .

ـ إذاً أصغِ جيّداً ، واحفظ ما سأقوله من غير زيادة أو نقصان : إنَّ هذه الآلة لا تبدأ عملها ولا تتوقّف إلاّ بعبارة سحريّة تردّدها في كلّ مرّة . فإذا احتجتَ إلى الملح تقول :

« أَمَنْدار ، أَمندار ، ياسيّد البحارْ
ما أعظمَ سِرَّكْ ، وأرفعَ قدرَكْ
أظهرْ ليَ سِحركْ ، أظهرْ لي سحركْ » .

« فإذا أردت أن توقف الآلة ، ضعْ سبَّابتيك على هذين الزِّرَّين وردِّد العبارة ذاتَها ، فتتوقَّف الآلة للحال » .

وبرّ كلٌّ منهما بوعدِهِ ، فقدَّمت الحوريّة للصيّاد آلتها السحريّةَ ، وحمل الصيّاد الحوريّة وأعادها إلى البحر ، فغاصت مبتسمةً شاكرةً ، تنطلق من حنجرتها أنغامٌ رقيقة تعبّر عن سعادتها لعودتها إلى حريّتها.

***

بدأ الصيّاد يجذِّف عائداً إلى الشاطىء ، مفكِّراً بالأحداث التي مرّت به في تلك الصّبيحة العجيبة ، وهو لا يُطيق صبراً على الوصول إلى كوخه ليختليَ بآلته ، بعيداً عن فضول الناس .

أغلق الصيّاد باب كوخه ونافذتَه الوحيدة ، وسارع إلى الآلة يُخرجها من علبتها بتأنٍّ وحذر . ثمّ وضعها على طاولة ، وفرك يديه بتأثّر بالغ ، وقال

بصوت مرتجف :

« أمَنْدار أمَنْدار ، يا سيّد البحار
ما أعظم سرَّكْ ، وأرفعَ قدَرَكْ
أظهِر لي سحرَكْ ، أظهر لي سحركْ » .

ويا لَلْعَجَبِ العُجاب ! ما كاد الصيّادُ يتفوّه بآخر كلمة حتى تحرّكت قِطعُ الآلة في صعودٍ وهبوط ، أو في لفٍّ ودَوَران ، وخرج الملحُ منها ناعماً ناصعَ البياض !.. والصيّاد جاحظُ العينين ، فاغرٌ فاه ، لا يأتي حَراكاً . وأفاق من دهشته والملحُ قد غمر الطاولةَ وكاد يَدْفُقُ منها ، فسارع ووضع سبّابتيه على الزرّين اللّذَين أشارت إليهما الحوريّةُ ، وردَّد العبارة السحريَّة ، فتوقّفت الآلة وهَمَدَت أنفاسها .

وضع الصيّادُ الملح في كيس وأوى إلى فراشه . وفي تلك الليلةِ طال به السُّهادُ ، ولم يَغفُ إلاّ وقد انقضى من الليل أكثرُه ، لأنّ الأحلام كانت تدغدغ

مخيّلته : كان يُمنّي النّفسَ بأعذبِ الأمانيّ ، فرأى نفسه وهو يَرفُل بثياب الأغنياء ، ويعيش حياةَ رَغَد وهناء ، بعدما هجر كوخه واشترى بيتاً من أجمل البيوت .

وكأنّي بتلك الأحلامِ الجميلة قد أثلجت صدرَ الصيّاد وطيَّبت خاطره ، فنام قريرَ العَين ، تفترّ شفتاه عن ابتسامة حلوة ...

لما أفاق الصيّاد من نومه تبادر لذهنه أنّ ما جرى له في الأمس لم يكن غيرَ حُلم عابر . ولبرهة راوده الشكّ ، ولكنّه قام لتوّه يتفقّد الآلة في علبتها ، فإذا هي حيثُ تركها ؛ فاطمأنّ وتأكّد من أنّ المغامرة التي عاشها كانت حقيقة .

حمل الصيّاد كيس الملح على كتفه وتوجّه به إلى السوق . وكانت السوق في تلك السّاعة تضجّ بالبائعين والشارين . وأصواتُ المنادين تمتزج بأصوات المواشي والطيور . شقّ طريقه حتى وصل إلى زاوية

فيها مِصْطَبةٌ عالية ، فارتقاها ، ووضع الكيس أمامه ، وفتحه ، وتناول منه حَفْنةً من الملح . ثمّ رفع يده في الهواء وراح ينادي بأعلى صوته :

ـ يا ناسُ ! يا ناسُ ! تعالوا وانظروا : إنّها لأعجوبةُ العجائب ! تعالَوا وتذوّقوا هذا المسحوقَ ، ذوقوا الملح الطيّب الذي لم يذقه إنسانٌ بعدُ ! تقدّموا ! تقدّموا !..

وأثار نداء الصيّاد فضول الناس ، فتحلّقوا من حوله ، ومدّوا أيديهم يتلمّسون الملح الناعم ، ورفعوه إلى أفواههم يتذوّقونه . وأحبّ الكثيرون مَذاق الملح فطلبوا شراء كميّاتٍ منه . وبعد فترة فرغ الكيس ، فعاد الصيّاد أدراجه وفي جيبه مبلغ من المال ، والناس يُلحّون عليه طالبين منه أن يأتيَهم في اليوم التالي بالمزيد من المسحوقِ العجيب .

***



تعاقبت الأيّام، ومرّت أسابيعُ وشهورٌ، والصيّاد على أحسنِ حال، يصنع الملح ويبيعه. وكان صِيته قد ذاع وعمّ البِقاع، فتوافد الناس من كلّ حَدْبٍ وصَوْب يشترون بضاعته، فزاد ربحه وتضاعفت ثروته. وعبثاً حاول البعض استدراجه للبوح بسرّ مسحوقه، فقد بقي صامتاً، وبقي سرُّه دفيناً في صدره.

إنتقل الصيّاد من كوخه إلى بيت كبير، وتزوّج فتاة حسناءَ، وابتسمت له الحياةُ، وسارت عجلة الزّمان وحالُه من حسن إلى أحسنَ!

لم يكن الصياد يجهل أنّ أناساً في البلدة كانوا يحسدونه على ثروته وسعادته، وأنّهم يترقّبونه ويتربّصون به. وذاتَ ليلة تسلّل لصوص إلى منزل الصيّاد من غير أن يراهم أحد، فوجدوه في غرفته أمام آلته وهو يصنع الملح مردّداً العبارة السحريّة. فأنعمَ اللصوص النظرَ سِرّاً، وأصاخوا. ولم يطل بهم الانتظارُ حتى علموا بسرّ الآلة، إذ سمعوا ما قاله

الصيّاد ، ورأوا أعجوبة الملح تتحقّق أمامهم .

إقتحم اللصوص الغرفة ، وأطبقوا على الصيّاد ، فأشبعوه ضرباً وسرقوا آلتـه ، ثمّ انسحبوا تحت جُنح الليل . ومن هناك لجأوا إلى كوخ على الشاطىء ، فباتوا فيه ليلتهم . ولمّا انبلج فجر اليوم التالي حملوا الآلة المسروقة واتّجهوا بها إلى المرفإ الصغير حيث كان زورقٌ بانتظارهم ... لقد عزموا على الفرار إلى بلاد بعيدة لأنّهم علموا بأنّ أمرهم سينفضح إذا ظلّوا في بلدتهم .

رفع اللصوص المِرْساةَ وراحوا يجذّفون ، إلى أن ابتعدوا عن الشاطىء . ولمّا تعبوا من التجذيف توقّفوا في عُرْض البحر ليرتاحوا ، وأخرجوا زاداً أحضروه معهم وبدأوا يتناولون طعامهم . عندئذ قال أحدهم متحمّساً :

- ما رأيكم في بعض الملح نَرُشّه على طعامنا فيطيّبه ؟

أجاب آخرُ :

- إنّها لفكرةٌ حسنة ! علينا بالآلة !

وأخرجت الآلة من علبتها ، فوضعها أحد اللصوص أمامه ، وأغمض عينيه يستعيد في ذاكرته العبارة السحريّة التي سمع الصيّادَ يردّدها قبل البدء في عمليّة صناعة الملح . ثمّ انفرجت أساريره ، وقد تذكّر العبارة كلمةً كلمة ، فراح يردّد :

« أمندار أمندار ، يا سيّدَ البحارْ

ما أعظم سِرَّكْ ، وأرفعَ قدرَكْ

أظهر لي سِحرَكْ ، أظهرْ لي سحرَكْ » .

وللحال تحرّكت قطع الآلة ، وراح الملح يخرج من طيّاتها ناعماً ناصعاً . فضجّ اللصوص وصاحوا وغنّوا ، وراحوا يأكلون بنَهم وهم يضيفون إلى طعامهم ما شاؤوا من الملح اللّذيذ .

ولمّا انتهوا من تناول الطعام فوجئوا بالملح وقد غمر نصف القارب . أرادوا أن يوقفوا الآلة ، فعاد

أحدهم يردّد العبـــارة السحريَّة ، ولكنّ الآلة لم تتوقّف ، لأنّ اللصوص لم يكونوا قـد رأوا الصيّاد يضغط على الزرّين اللذين يوقفانها ! وعبثاً حاول كلٌّ منهم أن يوقف الآلة مردِّداً العبارة تكراراً ، فباءت محاولاتهم جميعاً بالإخفاق الذّريع ...

... وكان الملح قد بدأ يمـــلأ جوانب القارب ، فركلوا الآلة وضربوها ، وحاولوا فكّ قِطعهـــا أو تعطيلها ، من غير جدوى .

نظر اللصوص إلى الملح يتكدّس في قعر القارب ويرتفع ، وتنبّـهوا للخطر ، لأنّ القارب قد بدأ يرزح تحت عبء الملح ويغوص في الماء شيئاً فشيئاً ؛ فراحوا يغرفون الملح بأيديهم ويُلقون به في البحر . ودامت عمليّتهم تلك ساعاتٍ : هم يتخلّصون من الملح الفائض ، والآلة تصنع المزيد منه بكميّات منتظمة ، لا تكلّ ولا تتعب . فذُعر اللصوص وخارت قواهم ، ولم يبقَ لهم في الأمر حيلةٌ ...

كان القارب يُوغل في الغوص ، فهبّ اللصوص لتلافي الكارثة ، ولكنْ من غـــير جدوى . واهتزّ القارب بسبب اضطرابهم ، واختلّ توازنُـه ، فانقلب. سقط اللصوص في المـاء ، وسقطت الآلة كذلك ، وراحت تغوص متهاديةً في غوصها والملح يخرج منها من غير هَوادة ، حتى استقرّت في قعر ذلك البحر السحيق ...

سبح اللصوص إلى القارب فقلبوه وصعدوا إليه بعدمـــا أيقنوا أنّ الآلة قد ضاعت منهم ، وأنْ لا مجالَ لاستعادتها .

ومنذ ذلك الوقت ، وعلى أثر هذه الحادثة العجيبة ، والآلة السحريّة تصنع الملـــح ليلَ نهـارَ ، صيفَ شتاءَ ... وعلى مرِّ العصور ذابت كميّات الملح العظيمة ، وامتزجب بمياه البحار فجعلتها مالحة ...

شامو

« شامو » كلبٌ عجيب ، فريدٌ من نوعه ... ليس بكلبِ صيدٍ ، ولا هو راعي ماشية : لقيطٌ ، لا يعرف أحدٌ أصلَه ولا فَصْلَه . وجُلُّ ما يعرفه الناس أنَّ « شامو » كلب غريب جاء القريةَ منــــذ سنوات ، لا يدري أحـدٌ كيف ، ولا من أين ... لا سيِّدَ له ولا مُعيل ، ولا صديقَ له بين الناس ولا بين الكلاب .

وأوَّلُ مـــا يَسترعيك في « شامو » شكلٌ مميَّـز غريب : فمٌ مستطيل شَدْقُـه الأسفل منحرف بعضَ الشيء إلى اليسار ، فَتخالُ ، عند ما تنظر إليه ، أنَّ فيه تكشيرةً طبيعيّة لا حَول لـ « شامو » فيهـا ولا قُوَّة ! وأعجبُ ما في « شامو » ، فضلاً عن العاهة التي

شوّهت فمه، أذُنانِ وذَيلٌ اجتثّتْها الفأسُ من جُذورها عندما كان جَرْواً، فبدا ذلك الكلبُ العجيب وكأنّه جاء إلى هذه الدُّنيا وليس له ذيلٌ ولا أذنان!..

ولون «شامو» أسودُ ما عدا رُقعةً مستديرةً بيضاءَ في طرف وجهه الأيسر. إنّها «شهوة» كما كان أهل القرية يقولون ساخرين، فيا لَسوءِ طالِعه! شهوة جاءت، هي الأُخرى، تطبع على وجه ذلك الكلبِ الشريد سِمَةً من سمات الغرابة التي يتفرّد بها بين الكلاب كافّةً...

قلنا إنّه ليس «لشامو» سيّدٌ ولا صديقٌ بين الناس ولا بين الكلاب... فسِيرتُه، منذ استقرّ في القرية، سلسلةٌ من الأحداث التي أبعدت عنه البهائمَ والآدميّين. وليس «لشامو»، والحالُ هذه، ماوى ولا مصدرُ رزق، فكيف يَحصل إذاً على طعامه؟ إنّه لَسرٌّ عظيم! وأغرب ما في الأمر أنّ الجوع لم يظهر

مرّة على «شامو»: فهو دائم الحركة والنشاط، لا يعرف الوَهنَ، ولا تظهر عليه ملامحُ مَن يشكو من هُزال أو حرمان. فهو، بالتالي، يحصل على قُوته اليوميّ من غير أن يتصدّق به عليه سكّانُ القرية.

وقد حدث غيرَ مرّةٍ أنْ تذمّر بعضُ نساء القرية من فقدانهنّ فِراخاً كانت تَنقُدُ الحَبَّ في حدائق منازلهنّ، فاختفت تلك الفراخُ من غير أن تترك لها أثراً! وأغلب الظنّ أنّ «لشامو» في ذلك شأناً أكيداً! كما أنّ الكثيرين كانوا يتهامسون متحدّثين عن أيدٍ غريبة تمتدُّ خِلسةً إلى المطابخ فتسرق منها الطعام، حتى أنّهم باتوا يرتابون بامر بعض الشبّان العابثين المتسكّعين الذين يعيشون كالطُّفَيْليّات، لا شُغلَ لهم ولا شاغِلَ غيرَ ما تسطو عليه أيديهم من مواردِ الآخرين... ولكنْ لا بُدَّ أن تكون «لشامو»، هنا أيضاً، يدٌ بين الأيدي العابثة: فقد شوهِدَ ذاتَ مرّة وهو يتسلّل من بيت «زكيّة»، الأرملةِ العجوز، التي تخاف منه خوفَها من الموت، وقد



تلوَّثَ شدقاه بمرقٍ أحمرَ ، يلحسه بلسانه الطويل متلمّظاً !

يقضي « شامو » معظم أوقاته رابضاً على سُطَيحة بيتٍ مُتداعٍ مهجور في ساحة القرية ، حتى بات ذاك المكانُ بمثابة مقرٍّ عامٍّ له ، منه يَفِرُّ هارباً إذا أحدق به خطرٌ ، ومنه يَكُرُّ متقفّياً أثرَ هذا أو تلك من الذين يحلو « لشامو » أن يداعبهم أو يشاكسهم !

قلت آنفاً إنّ « زكيّة » تخاف من « شامو » ؛ ولخوفها مبرِّرٌ : كانت « زكيّة » تخرج ظُهرَ كلِّ يوم وعلى كتفها جرّةُ فخّار كبيرةٌ تملأها من عين القرية . وكثيراً ما تكون طرق القرية في مثل تلك الساعةِ مقفرةً . وفي كلّ مرّة كان « شامو » يتعرّض « لزكيّة » فيَلحق بها ، وينبح عليها ، وينهش أطراف ثوبها . وكانت المسكينة تحاول ردّ هجمات ذلك اللّعينِ بما تبقّى لها من عافية ، فلا يرتدّ عنها إلاّ بعد جَهْدٍ جَهيد ، لا لأنّها ترغمه على ذلك ، بل لأنّه يكون قد ملّ أو

اكتفى . وذاتَ مرّة كانت « زكيّة » عائدة من العين وعلى كتفها جرّتها الثقيلة ، فلم تعرف من أين جاءها « شامو » ، ولكنّها شاهدته فجأةً وقد انتصب أمامها على قائمتَيه الخلفيّتين كمن يريد إلقاء السّلام ،فاجفلت المسكينة واستعاذت بالله ، وحاولت أن تَرْكُلَ الكلب ، وما إن مدّت رجلها حتى تسلّل بين ساقَيها وهو يَقفِز وينبح ، فتعثّرت « زكيّة » واختلّ توازنُها وهوت إلى الأرض ، وهوت جرّتها معها فتحطّمت ! وولّى « شامو » الأدبار وهو ينظر من حينٍ إلى آخرَ إلى الوراء ليرى ما حلّ بفريسته ... أمّا « زكيّة » فقد نهضت لاعنةً ساخطة منتحبة وثيابُها تقطر ماءً ، وتحرّكت بصعوبة ويداها على وَرْكَيها .

وتتكرّر مقالب « شامو » في كلّ ساعة من ساعات الليل والنهار ، لا يعرف كَللاً ولا استقراراً . فالكلاب ، في العادة ، تحاول التقرّب من الناس ،

تستدرُّ عطفهم ورضاهم ، و « شامو » يُمعن في الشذوذ عن هذه القاعدة ، فلا ينفكُّ يضايق هذا ، ويُلحق الأذى بتلك ، حتى باتت النقمة عليه عارمةً ... وقد كرهه أهل القرية جميعاً ، حتى أولئك الذين يؤمنون بطبيعة الكلاب الخيِّرة ، وذلك لأنَّ « شامو » قد أعلنها على الجميع حرباً لا هوادةَ فيها ، فلم يترك للصلح ، أو حتى للهدنة ، أيَّ مجال !

وثمّةَ ضروبٌ من مقالب « شامو » كانت تثير غضب الأهلين أكثرَ من غيرها . وكان بعضها يثير الحزن والشفقة في قلوبهم ، فيقفون حِيالَها مكتوفي الأيدي ، ولا وسيلةَ لديهم لاتّقائها أو لمعالجتها . « فلشامو » لذّةٌ خاصّة في التعرُّض للضعفاء ، وكأنّه يعلم أنّ ردّة فعل هؤلاء لا تزعجه ولا تؤذيه ، فكان يتفنّن في تعذيبهم . وكان ، في كلّ مرّة ، يخرج من جولاته معهم ناعماً بنَشوة الغَلَبة والنصر . ومن هؤلاء الضعفاء شابٌّ في العِقد الثالث من العمر ، اسمه

« حبيب » ، أصيب في طفولته بمرض خبيث أثَّر على عقله ، فكبر المسكين ولم يكبر معه عقلُه ، فبات ، وهو في شَرخ شبابه ، مكتمِلَ النموِّ جسديّاً ، متخلِّفاً عقليّاً إلى حدٍّ بعيد ... وكانت « لحبيب » عادةٌ نمت معه ، يعرفها الجميع منذ سنوات ، ولذا فلم يبقَ أحد منهم يجد فيها أيَّة غرابة : « فحبيب » مولَعٌ بالفاكهةِ الكُرَويَّة كالتفَّاح والرُّمَّان والليمون ، يأكل منها بنَهَم ولذّة . ولا عجب في هذا الأمر لو أنّ « حبيباً » كان يكتفي بتناول الفاكهة على هذه الشاكلة . غير أنَّه كان يحمل دائماً في قبضة يده اليمنى قطعةً من هذه الفاكهة الكرويّة : رمّانة ، ليمونة ، تفّاحة ، يضغط عليها بأصابعه مجتمعةً ، كأنّه يخاف عليها أن تسقط من يده . وكان « حبيب » ، لدى مروره بأحد الناس ، يطرح السلام بطريقة محزنة مضحكة معاً : يفغر فاه ، ويصعِّد من حنجرته أصواتاً غريبة ، ويرفع يده اليمنى قابضةً على تفّاحته أو ليمونته أو رمّانته ، ويلوِّح بها مسلِّماً . وقد ألفَ

السكّان « حبيباً » وعاداتِه ، فكانوا يعطفون عليه ويَرْثُون لحاله ، يساعدونه ولا يسخرون منه ، لأنّه ، فضلاً عمّا أصيب به من عاهة دائمة ، وديعٌ لطيف لا يؤذي أحداً .

ولكنَّ موقف « شامو » من « حبيب » موقف مختلف . فكلبُنا يتلذّذ في ابتكار المقالب التي تثير جنون « حبيب » وبكاءه . كان « حبيب » لا يمرّ من أمام « شامو » إلاّ إذا اضطُرَّ إلى ذلك اضطراراً ، فإن صادَفَه في الطريق الرَّئيس تحوَّلَ عنه ووَلَجَ طريقاً أو زُقاقاً آخرَ ، ليأمن شرّه ؛ ولكنّ « شامو » كثيراً ما كان يفاجىء « حبيباً » والمسكينُ في مكان لا مفْرِقَ فيه ولا مَنْفَذ ... وهناك تقع الواقعة وتقوم القيامة !..

في تلك الصَّبيحة كان اللقاء بين « حبيب » و « شامو » على النّحو الذي ذكرتُ : كان الشابُّ يمشي

وعن يمينه قناةٌ للمياه بنتها البلديّة حديثاً، وكان كالمعتاد يقبض على ليمونة بحرص شديد . في بادىء الأمر لم يرَ « حبيب » الكلبَ الذي كان ممدَّداً في القناة يبترد ويستريح . وفجأة وقع نظر « حبيب » عليه بعدما أصبح على مقربة منه ، فلم يبقَ بمقدوره أن يتراجع . وخُيِّل « لحبيب » أنّ « شامو » لم يرَه ، لأنّه بقي ممدَّداً في القناة غيرَ مبالٍ ، ظاهريّاً ، لمرور « حبيب » من أمامه . واطمأنّ « حبيب » بعضَ الشيء ولكنّه بقي يتقدّم بحذر ، وهو يرمق الكلب بنظرة كلُّها تحفُّظٌ وقلق ، حتى ابتعد عنه مسافةَ عشرة أمتار أو أكثر ، فظنّ أنّه نجا ... في تلك اللحظة هبَّ « شامو » من مَوضِعه ، ومن غير أن يُحدث أيّةَ ضجَّة حبا وراء « حبيب » حتى بلغه ... إنقضَّ عليه من الوراء ، فتسنَّمه وهو يَعوي عُواءَ الذّئب ! وما إن بلغ مَنْكِبَيه حتى قفز إلى الناحية الأُخرى ، فصار أمامه ! وقعت المفاجأة على « حبيب » وقوعَ الصّاعقة ، فراح يبكي ويصيح مستغيثاً ، ملوّحاً

بيديه الاثنتين ، والليمونةُ لا تفارق يُمناه . كان يُنَطْنِط في مكانه كملاكم في حلبة الملاكمة ! ولم يكتفِ « شامو » بهذا القَدْرِ من الذُّعر بثَّه في صدر غريمه ، بل عاد فانقضّ من الأمام ، وعضَّ يده اليمنى ، فافلتت الليمونة من « حبيب » ممّا زاد في جنونه جنوناً ! وانحنى الخصم المقهور لالتقاط ليمونته ، ولكنّ « شامو » كان أسرع منه ، فالتقطها بين شدقيه وراح يعدو بها بعيداً ، فما كان من « حبيب » إلاّ أن ارتمى في وسط الطريق وهو ينتحب ويضرب رأسه بقبضتيه ...

***

هذه بعض المغامرات التي كان « شامو » يخرج منها منتصراً ، فلا هزيمةَ ولا عِقاب . ولكنَّ ثمّة وجهاً آخرَ لمغامرات « شامو » ، هو المغامرات التي كان يخرج منها كسيراً منتحباً كما فعل « حبيب » المسكين

في اللقاء الذي سبق وصفُه . وألدُّ أعداء « شامو » الأولادُ الذين هم في سنّ العاشرة وما فوق ؛ فهؤلاء شياطين يَهْوَوْن المقالب كما يهواها « شامو » أو أكثر . ولذلك كانوا لـ « شامو » أنداداً أقوياءَ لا يستهين بهم ، يؤذونه أكثرَ ممّا يؤذيهم . ولكمْ ذاق « شامو » العذاب والألم وهم يقذفونه بالحجارة ، أو ينهالون عليه بقضبانهم وعِصِيِّهم ولكماتهم . وشرُّ ما كان يَهُول « شامو » من هؤلاء الفتيانِ أنّهم سريعو العَدْو ، يلحقون به مهما تبلغ به السرعة : يتعرّجون إذا تعرَّجَ ، يحاورون إذا حاور ، يُطبقون عليه مهما تَطُلِ المداورات ، فيذيقونه العذاب ألواناً . ولذلك فإنّ نفس « شامو » كانت تأنف اللقاءات بصبيان الضيعة المتفوّقين .

غير أنّ خوف « شامو » من صبْية الضيعة لا يُعتبر خوفاً إذا ما قِيس بذلك الشعورِ الرهيب الذي كان ينتابه لدى مشاهدته « نعمان »... و « نعمان » شيخ

شباب الضيعة وقبضاياتها ؛ وهو بالنسبة إلى « شامو » وَباءٌ عُضال لا تَأمن شرَّه إلاّ إذا اتَّقيتَه وابتعدت عنه . وقد ترسَّخ شعورُ « شامو » حيالَ « نعمان » بعد مُجابهةٍ حصلت بينهما لسنةٍ خلت ، كادت تُزهق روح « شامو » . ومنذ ذلك الحينِ و « شامو » يرتعد خوفاً كلّما شاهد القبضاي عن مسافة بعيدة ، ويتنحّى عن طريقه ذليلاً ، منكّس الرأس ، لا يَلوي على شيء !

وكأنّي « بشامو » بدأ يعي واقع أمره مع « نعمان »، فحزَّ في قلبه الألمُ ، وتحرّكت حَمِيَّته . وبما أن « شامو » لم يتمكّن من الاقتصاص من « نعمان » وهو في مواجهة صريحة معه في وَضح النهار ، فقد راح ينتقم منه أثناءَ الليل عندما يُخلد « نعمان » إلى الراحة، بعد عَناء النهار ومَشاغله . وذاتَ ليلة من ليالي آب الحارَّة المُقمرة استفاق « نعمان » على نباح قويّ ، فتأفّف وتململ في فراشه ، وظنّ أنّ النّباح سيتوقّف

بعد حين. ولكنّ النباح استمرّ، فنهض «نعمان» من فراشه وخرج إلى سطيحة المنزل ينظر إلى مصدر الصوت. وكم كانت دهشته حين رأى «شامو» وقد رفع رأسه صوبَ بيت «نعمان» وهو ينبح ويعوي، مُحدثاً جلَبةً لا مثيل لها. نهره «نعمان» بصوت جهوريّ فغاب عن ناظرَيه، وعاد الشابُّ إلى فراشه يَنشد فيه راحة قطعها عليه ذلك الحيوانُ اللّعين. وداعب النعاس جفن «نعمان»، وكاد يغفو لولا أنّ نباح «شامو» عاد من جديد يُقلق راحته! فاغتاظ «نعمان» وقام ثانية ينهر الكلب ويتهدّده. لكنّ الكلب بقي على تلك الحال طوالَ الليل، فقضى «نعمان» ليلة رهيبة، ونهض صباحاً إلى عمله مُتْعَباً محطّمَ الأعصاب.

... تعاقبت الأيّام، وليالي آب الطويلة اللهّابة، و«شامو» على عادته: يقف على رأس الدرج قُبالةَ بيت «نعمان» ويقضي معظم الليل في نباح مستمرّ، والشابُّ يكاد يفقد صوابه، إذ لا يجد من ذلك

الوضع خلاصاً...

وفي ليلة حالكة، غابت من سمائها الكواكبُ والنجوم وراء سحاباتٍ غَبْراءَ، قبع «نعمان» في فراشه ينتظر... ولم يطل به الانتظارُ، فما إن انتصف الليل حتى أطلّ «شامو» كالمعتاد بنباحه المُريع، يتفنّن في تنغيم نبراته، يُطلقها تارةً متقطّعةً، وتارةً أخرى متّصلةً طويلة كعواء الذئاب. إبتسم «نعمان» في الظلام، ومدّ يده فتناول بندقيّة صيد كان قد وضعها أمام سريره قبل أن ينام. ثم نهض والبندقيّةُ في يده، فتلمّس طريقه في الظلام حتى بلغ طرف السُّطَيحة. إستدار إلى مصدر الصوت علّه يرى «شامو»، ولكنّ الظلمة كانت حالكة فلم يرَ شيئاً. وساء «نعمانَ» أن يعود إلى فراشه وهو لم ينفّذ ما كان قد خطّطه، فرفع بندقيّته إلى كتفه، وحدّق في الظلمة كأنّه يريد أن يرى الصوت بعدما عجز عن رؤية صاحبه، وركّز انتباهه... وفيما كان

« شامو » يطلق نباحه الطويل ضغط « نعمان » على زناد بندقيّته، فانطلق منها عيارٌ ناريّ دوّى في تلك السكينةِ الكاملة دويّ المِدفع العظيم!.. وللحال انقطع النباح، وحلّ مكانه عويلٌ ما سمع « نعمان » مثلَه قطّ... وضحكَ « نعمان » في سرّه: تُرى، هل أصاب « شامو » حقّاً؟ ولكن، ما همّ « نعمان »؟ فعملُه قد أثمر للحال، وغاب النباح الذي طالما عكّر عليه صفوَ لياليه، وهذا ما كان يريده. ولأوّل مرّة منذ زمن أمضى « نعمان » ما تبقّى من الليل آمناً مطمئنّاً، لا يفكّر بشيء، حتى أنّه نسي « شامو » نسياناً كاملاً.

وفي الصباح استفاق « نعمان » كعادته، فتثاءب وتمطّى؛ وفي تلك اللحظة بالذات عادت أحداث الليلة الماضية تمرّ في مخيّلته، فبات يتساءل بفضولٍ كثير عمّا حلّ « بشامو »...

***

مضت أيّام اختفى فيها « شامو » عن القرية.

وظنّ الناس أنّ الكلب قد مات، ولم يكترث لغيابه أحدٌ، فتناسى الجميع أمره، وكأنّ « شامو » لم يكن قطّ، ولا كانت مغامراته ومشاكساته. واطمأنّت نفس « زكيّة »، وعاد « حبيب » يجوب طرقات القرية على هواه...

وذاتَ يوم كان « نعمان » عائداً من الحقل فرأى في طريقه مشهداً عَجَباً: من بعيد رأى « حبيباً » يسير كعادته مترنّحاً، ويده اليمنى قابضة على ليمونة، وهو يتقدّم بُمحاذاة قناة الماء على جانب الطريق. وفجأة رأى « نعمان » كلباً ينتصب في وسط القناة، ثم يعبر الطريق إلى الجهة الأخرى مبتعداً عن « حبيب »، هارباً منه. وتوقّف « حبيب » برهة وقد سمّرته الدهشةُ، وما لبث أن أدرك أنّ ذاك الكلبَ لم يكن غيرَ « شامو » عينِه، كما أدرك أنّ الكلب الذي طالما غالبه فغلبه، كان في تلك المرّة يُعرض عنه واجفاً... وكأنّ ذلك التحوّلَ المفاجىء في حال

« شامو » قد راق « حبيباً » ، فالتقط حفنةً من الحجارة راح يقذف بها « شامو » قذفاً سريعاً متتالياً . فاطلق الكلب قوائمه للريح . ولكنّه توقّف فجأة عن الجرْي لأنّ « نعمان » كان يقف له بالمرصاد : فقد تصدّى له في وسط الطريق منفرجَ القدمَين ، ثابتَ العزم ، وهو ينظر إلى « شامو » نظراتِ الوَعيد ...

وأدرك « شامو » أن لا مَفرَّ له ، فربض في مكانه وهو ينتظر سوءَ المصير ...

في تلك اللحظةِ رأى « نعمان » في عينَي « شامو » بريقاً لم يرَه من قبلُ : لقد قرأ فيها رسالةَ استسلام وخضوع تامّ . واستمرَّ « نعمان » يتفحّص وجه « شامو » ، فرأى شدقيه مطبَقين وقد علتهما طبقةٌ كثيفة من الدماء المتخثّرة ، فأيقن « نعمان » عندئذ أنّ العيار الناريَّ الذي أطلقه في تلك الليلة ، منذ أيّام ، قد أصاب هدفه إصابةً مباشرة ...

لمّا رأى « نعمان » « شامو » على تلك الحال ، ضعيفاً ، ذليلاً ، مستسلماً ، تبدّل موقفه . فقد بدا ، وهو واقف أمام الكلب ، كالجلاّد القويّ يوشك أن يُودي بحياة محكوم ضعيف ... ولأوّل مرّة أشفق « نعمان » على « شامو » ، ولأوّل مرّة علم « نعمان » أنّ « شامو » قد تلقّن درساً عظيماً ، أعظمَ درس في حياته ، وأنّه لن يعود إلى سابق عهده من المشاكسة ، فلن يناصب أهل القرية العداء بعد اليوم ، ولن يعكّر عليهم صَفْوَهم!

تحرّك « نعمان » في اتجاه « شامو » ، فتخطّاه ، والكلبُ لا يتحرّك . وتابع « نعمان » سيره وهو راضٍ عمّا فعله . ومنذ ذلك اليوم حلَّ الوئام بين أهل القرية و « شامو » . فقد غدا « شامو » كلباً كاكثر الكلاب : وديعاً ، صديقاً . وصار الناس ينظرون إليه نظرةَ عطف وإشفاق ، كما ينظر الناس عادة إلى كلّ ضعيف ...

الورقة الأخيرة

في مطلع الخريف قرّر « شاكر » أن يغادر بيته وبلدته لأوّل مرّة منذ سنوات ، وأن يقضيَ عطلته السنويّة في ربوع الرِّيف .

و« شاكر » شابٌّ في الخامسة والعشرين من عمره . أنهى دراسته الثانويّة والتحق بمعهد الفنون الجميلة ، فتخرَّج منه بعد ثلاث سنوات بدرجة ممتازة ، نال بفضلها جائزةً ماليّة تقدّمها الأكاديميّة للفائز الأوَّل من كلّ دورة . وعلى أثر هذا النجاح قرّر « شاكر » أن يحترف الرسم ، فرسم طوال سنةٍ لوحاتٍ عديدةً وجميلة . وأقام في نهاية ذاك العامِ مَعْرضاً لرسومه ، فكان ذلك المعرضُ أكبر خيبة عرفها في حياته !.. كان يأمل ان تنالَ لوحاته استحسانَ الجمهور ، فإذا

بالجمهور يقابل أعماله بفتور . وباع « شاكر » في ذلك المعرض أربعاً من لوحاته ، فما استطاع أن يغطّيَ إلاّ بعضاً من نفقات العَرْض .

بعد المعرض شعر « شاكر » بأنّ باب الرزق الذي حاول أن يَلِجَه في مستهلّ حياته العمليّة قد أوصد في وجهه إلى حينٍ . فكان عليه أن يختار مجال عمل آخرَ يطرق بابه مؤقّتاً ، فتوظّف في إحدى الوزارات ؛ ولم يمضِ عليه في عمله الجديد ثلاثُ سنوات حتى عقد العزم على الاستقالة للاستقرار في إحدى قرى « لبنان » الهادئة ، بعدما وفّر بعض المال الذي يؤمِّن له نفقات الإقامة فيها إلى حين .

***

إستقلّ « شاكر » سيّارة ركّاب أوصلته إلى أحد مراكز الاصطياف الكبيرة . ومن هناك مشى بضعةَ كيلومترات حتى وصل إلى القرية الصغيرةِ التي كان يقصدها ، فاستأجر غرفةً في منزل سيّدة عجوزٍ .

وما إن استقرّ به المُقامُ حتى خرج يتدرّج في دروب القرية الضيّقةِ ، يَنْهَلُ من جمال الطبيعة الباهرِ ، ويشمُّ روائح الأزهارِ التي تضوّعت في الجوّ مِسْكاً وعَنْبراً ، ويصغي إلى موسيقى الطّيور في أعذبِ المعزوفات ...

في اليوم التالي قضى « شاكر » معظمَ أوقاته يرسم بشَغَف ... خرج من غرفته باكراً ، وبعد مسيرة قصيرة اختار له بقعةً مُخْضَوْضِرَةً تُحيق بها البساتينُ والكروم من كلّ جانب ، فجلس على مقربة من جدول صافٍ رَقْراق يملأ رئتَيه بهواء القرية اللبنانيّة المُنعشِ البَليل . وأدهشته سكينةٌ شاملة سادت ذلك المكانَ : فلا صوتَ يَشوبُ قُدسيّةَ الهدوء غيرَ خريرِ الجدول ، وزقزقةِ بعض الطيور التي استيقظت باكراً وخرجت من أعشاشها تمجّد الخالقَ بأناشيدها الطّاهرة ...

غمرت السّعادةُ روح « شاكر » وقلبَه ، وأحسّ

بالطُّمأنينة والسلام ، فوضع لوحةً بيضاء على المِنْصَب أمامَه ، وأخذ ريشته وراح يَمْزُجُ الألوان . ثم بدأ يرسم والريشةُ تنساب بين أنامله انسياباً عَذْباً فتخُطّ على اللوحة خطوطاً وأشكالاً ولا أجملَ ...

في تلك البقعةِ المُلْهِمة السّاحرة لم يرَ « شاكر » من مَعالم الحضارة غيرَ بيتٍ قائم على بعد يسير ، أمامَه حديقةٌ مُهْمَلة ، تغطّي قسماً كبيراً من واجهته الأماميّةِ عَريشةٌ عظيمة بدأت أفنانُها تتعرّى ، وقد تدلّت منها بقايا عناقيدَ هَزيلةٍ . ولأوّل وَهْلةٍ ظنّ « شاكر » أنّ ذلك البيتَ طَلَلٌ مهجور . فخلال وجودِه في ذلك المكانِ طوالَ يومهِ الأوّل ، اتّجه ببصره إلى البيت غيرَ مرّةٍ ، فلم يقع فيه ، ولو مرّةً واحدة ، على مظهر من مظاهر الحياة .

مرّت أيّامٌ و« شاكر » يعود إلى بُقعته المحبّبة كلّ يوم ، فيجلِس في المكان نفسِهِ ، ويرسم ساعات وساعات .وداهمه الليلُ ذاتَ مساءٍ ، وهو على حاله من

النّشوة والرِّضى ، فقام يجمع أدواتهِ ويهُمُّ بالعودة إلى غرفته . وحانت منه التفاتةٌ إلى المنزل المنفرد ، فلاحَ له في إحدى غرفه نورٌ كان على الأرجح ضوءَ شمعةٍ أو قنديل . إذاً لقد أخطأ « شاكر » حين ظنّ أنّ البيت مهجور !..

بقي « شاكر » ينعم بعطلته الخريفيّة ناسياً همومَ الدُّنيا ومتاعبَ الناس والعمل ، يتجوّل في أرجاء القرية مُنتشياً بسحرها ، يرسم ويرسم ، فتأتي لوحاتُه آياتٍ من الرّوعة ، وكأنّ فيها لَمساتٍ من روح الله الذي أوجد ذلك الجمالَ فأبدع ...

وبين الحين والآخر كان « شاكر » ، وهو في خَلوته ، ينظر إلى البيت الذي كان يرسم بالقرب منه ، فلا يجد فيه أثراً للحياة . ولكنْ ، ذاتَ مرّةٍ ، خُيِّل إليه أنه شاهد طَيْفاً لاح من وراء إحدى نوافذ البيت ، إلاّ أنّ الطّيفَ ما لبث أن توارى . فتيقّظ فضول « شاكر » ، وقرّر أن يذهب إلى المنزل للاستطلاع .

إجتاز المسافة بدقائق ، وسار نحو المدخل في ممرّ ضيّق بين أحواضٍ فيهـا بقايا زهور ذابلة ، وقرع الباب . وقف « شاكر » هناك لبضـع ثوانٍ لا يتلقّى جواباً ، وَهَمَّ بأن يعود أدراجَه ، ولكنّه توقّف من جديد حين سمع وراءه صريرَ باب البيت وهو ينفتح ، فاستدار ، ورأى فتاة في مُقْتَبَل العمر تنظر إليه بدهشة . وأوّلُ ما لفت نظرَ « شاكر » في تلك الفتاة وجهٌ جميل القَسَمات ، وقامةٌ فارعة . ولكنّ ثمّةَ أموراً أخرى استرعت انتباهَه : فعلى الرّغم من ملامحِ الفتاة الجميلة لاحظ « شاكر » أنَّ وجهها كثير الشُّحوب ، وأنّها نحيلةٌ تكاد تكون هَزيلةً . ولم تَنْبِسِ الفتاة بكلمة ، ولا هي ابتسمت أو رحّبت بـ « شاكر » فدَعته إلى الدخول ، بل اكتفت بالوقوف أمامَه شبهَ جامدةٍ ، وفي عينيها سؤالٌ . بادرها « شاكر » بالتحيّة ثمّ قال :

- إعْذِريني يا آنسةُ إذا كنت قد أزعجتك . كنت أتنزّه في جوار المنزل ، وقد عطشت فخطر ببالي أن أدقّ الباب طالباً شربةَ ماء ...



قالت الفتاة :

ـ تفضَّلْ ، أُدخلْ ...

وغابت الفتاة دقائقَ ، ثم عادت تحمل في يدها قَدَحاً من شراب التُّوت البارد ، فقدّمتها له قائلةً :

ـ تفضّلْ اجلس .

تناول « شاكر » قدح العصير والفتاةُ جالسة أمامه ، جامدةً صامتة ، تنظر إليه بعينين تَعِبتين ، وعلى شفتيها ابتسامةٌ خفيفة . وشعر « شاكر » بالارتباك ، فجرع العصير بسرعة ، ثم نهض وشكر مُضيفته . ولكنّ الفتاة استوقفته وسألته :

ـ يتبيّن لي من لهجتك أنّك لست من هنا ، فهل جئت إلى القرية في عمل ، أم أنّك تقضي في ربوعنا عطلةً ترسم فيها وترتاح ؟

تعجّب « شاكر » من سؤالها وأجاب :

ـ أنا من المدينة ، واسمي « شاكر » ، جئت لأرتاح

وأرسم ، والرسمُ هوايتي الأولى . ولكنْ ... كيف عرفتِ أنّني أرسم ؟

إبتسمت الفتاة ، واجتاح وجنَتَيها الشّاحبتين احمرارٌ مفاجىء :

ـ إسمي « سلمى » . وأنا أراك تأتي كلّ يوم فتجلس في هذا المكان لترسم . إعذرني إذا كنت قد تطفّلتُ ونظرت إليك من بعيد وأنت لا تشعر بوجودي . أنا لا أخرج من البيت منذ مدّة لأنّني مريضة ، وقد أشار عليّ الطبيبُ بالرّاحة التامّة .

وأراد « شاكر » أن يسألها عن طبيعة مرضها فلم تسنح له الفرصةُ ، لأنّ الباب قُرع في تلك اللحظة ؛ فنهضت الفتاة وفتحت ، وحيّت القادمَ ، وكان رجلاً جليلاً في العِقد السادس من عمره . قالت « سلمى » :

ـ تفضّل يا دكتور ، أهلاً وسهلاً ...

شعر « شاكر » ببعض الحَرَج فاراد أن يعجّل في الانصراف ، ولكنّ الفتاةَ استوقفته وعرّفت القادمَ به :

- دكتور « سليمان » ، الأستاذ « شاكر » فنّان يقضي عطلته في ربوع قريتنا ...

سلّم « شاكر » على الطبيب ، وتمتم بعض كلمات المجاملة والأدب ، ثم اعتذر وانصرف .

***

أنفق « شاكر » قِسْطاً من ليلته تلك يفكّر بلقائه فتاةَ « المنزل المهجور » ... يفكّر بجمالها الذي يشوبه الشّحوبُ ، وبابتسامتها الممزوجة بالكآبة ؛ وفكّر كذلك بوضعها الصحّيّ . قالت له إنّها مريضة لا تبرح المنزل بأمر من الطبيب . فمن أيّ مرض تشكو ؟ وأيُّ مرض ذاك الذي يَحُول دون مبارحتِها المنزلَ ؟

في صبيحة اليوم التالي عاد « شاكر » إلى مكان عمله . كانت السّماء مكفهرّة ، وقد هبّت نسمةٌ باردة تُؤذن بحلول الخريف .

جلس « شاكر » يضع اللّمَساتِ الأخيرةَ للوحةٍ كان قد باشر رسمَها منذ أيّام ، تمثّل « البيتَ المهجور »

وقد اكتنفته الخضرةُ من كلّ جانب . وزاد اهتمامُه بالمنزل بعدما كان ذاك الاهتمامُ محصوراً ، لأيّام خلَتْ ، في الشّكل والمنظر . وراح ينظر إلى نوافذ البيت ومَداخلِه ، فتركّز بصرُه فجأةً على إحدى تلك النوافذِ حين رأى من ورائها صاحبةَ المنزل تنظر إليه ، ولا تحوّل عنه بصرَها ...

أجفل « شاكر » وكأنّه فوجىء في خلوةٍ وهو يقوم بعمل شائن ؛ فاحمرّت وجنتاه ، ولكنّه سرعانَ ما سيطر على اضطرابه ، فتنحنح ، ورفع يده يُومىء إلى الفتاة مسلّماً . ورفعت الفتاةُ يدها من وراء النّافذة تردُّ السلام بإيماءة خفيفة . وخُيّل لـ« شاكر » أنّها تبتسم له ، ثم رآها تبتعد عن النافذة وتختفي داخلَ المنزل .

شعر الشابُّ بأنّ ثمّة دافعاً يَحُثُّه على النهوض ، فنهض ، وسار إلى المنزل . وقف أمام الباب متردّداً ، ثم قرع قرعاً خفيفاً . ولم يطل به الانتظارُ في

تلك المرّة ، فقد فُتح البابُ ، وشاهد الفتاةَ واقفةً وقد تقوّسَ حاجباها كأنّ تلك الزيارةَ قد فاجأتها . بعد التحيّة قال « شاكر » :

ـ سمحت لنفسي أن أسال عن صحّتك بعدما علمت منك البارحةَ أنّك مريضة . كيف حالُك اليومَ ؟

ـ صحّتي ؟ حالي ؟ لست أدري ...

لم يَرُقْ « شاكراً » جوابُ « سلمى » المُبْهَمُ ، فسكت . وظنّ أنّ الفتاة لم تكن راغبةً في الحديث ، فبات يفكّر بالانصراف وقد ندم على قُدومه . ولكنّ « سلمى » شعرت بأنّ الضّيف قد ارتبك ، وبانّ جوابها كان جافّاً ، فابتسمت « لشاكر » ودعته إلى الدخول ، كما في المرّة السابقة :

ـ تفضّلْ ، أدخلْ ...

وغابت الفتاة كما فعلت لدى زيارة « شاكر » في البارحة ، ثم عادت تحمل إليه كوبَ شرابٍ ، وجلست تنتظر أن يباشر الحديث .

رَشفَ « شاكر » من كاسه رشفةً أو اثنتين ، وهو لا يدري ماذا يقول . فايّ موضوع يطرق مع تلك الفتاةِ الغريبة التي تبدو غيرَ مكترثةٍ لما يقوله أو يفعله ؟ ولكنّه في النهاية استجمع جرأته وقال :

ـ إنّها تَباشيرُ الخريف تلوح في الأفق ... عسى أن يكون الطقس معتدلاً هذه السنةَ . فقد علمت أنّ موسم البرد في السنة الماضية كان قاسياً للغاية ...

تقطّب حاجبا « سلمى » كأنّ ذكر الخريف والبرد قد أثار في نفسها عواطفَ وشجوناً . وأدارت وجهها تحاول إخفاءَ اضطرابها ، ثمّ عادت تنظر إلى « شاكر » بابتسامتها الكئيبة ، واغرورقت عيناهـا بالدموع ، وقالت :

ـ إعذرني إذا كنت قد فقدت رباطة جاشي فاضطربت . ولكنّ الخريف ليس أحبّ الفصول إليّ .

ـ وأنا أسْتَميحُك عُذْراً إذا كنت قد أثرت موضوعاً يزعجك ، ولكنّني لا أعلم ...

فقاطعته قائلة :

ـ لا باس ، كيف لك أن تعرف أنّ أمراً كهذا يسبّب إزعاجي ؟ إنّ لي في الخريف ذكرياتِ حزنٍ وأسى .

أطرق « شاكر » صامتاً . وزاد ارتباكُه بعدما شعر بأنّه تسبّب في إزعاج مضيفته ، ونهض لينصرف . فقالت له الفتاة :

ـ ألا تريد أن تبقى بعضَ الوقت لترتاح ؟

ـ لا ، شكراً ، عليّ أن أنهي لوحةً بدأتها منذ مدّة ، وأنا أخاف من المطر يهطل فجأة فيقطع عليّ عملي . ولكنْ أرجو أن تاذني لي بان أزورك يوم غدٍ لأطمئنّ إلى صحّتك .

ـ أهلاً وسهلاً بك ، بإمكانك أن تزورني متى شئت . فانت الضيفُ الوحيد الذي يطرق بابي بعدما قطعتُ كلّ علاقة بالناس . ووجودُك هنا لا يزعجني البتّةَ ، بل بالعكس ، فانا أشعر بأنّك إنسانٌ كتومٌ ، وحديثُك يزيل بعض تعاستي ولو لفترة قصيرة .

بعد تلك الزيارةِ احتشدت الأسئلةُ في رأس « شاكر » . ففي كلامها غموضٌ كثير ، وهي تتصرّف تصرُّفاً غريباً يدعو فعلاً إلى التّساؤل والحيرة . ولقد تحدّثت الفتاةُ أثناء زيارته لها في ذلك اليوم عن ذكريات أليمة ، وقالت إنّها شقيّة ، فما خَطْبُها يا تُرى ؟

بات « شاكر » يشعر بدافع قويّ يَجذِبهُ إلى التفكير بحال « سلمى » . وأنفق ردَحاً من ليلته تلك يستعيد أحداثَ زيارته ، فيرى وجه الفتاة بقَسَماته الجميلة ، تعلوه الكآبةُ ويسوده الشّحوبُ . وزاد من اهتمامه أنّ حديثها القصيرَ قد أثار كلّ حيرته وفضوله . ولكنْ ما له ولهذا الاسترسال في التفكير ؟ فالفتاةُ لا تعدو كونَها غريبةً تعرّف بها صِدفةً . فجُلُّ ما يستطيعه هو أن يتمنّى لها الشّفاءَ العاجل !

في صباح اليوم التالي خرج « شاكر » من غرفته ، ولكنّه ، على غير عادته ، لم يكن يفكّر إلاّ قليلاً

بلوحاته ، وبالوقت المُمتع الذي سيقضيه ناعماً بجمال الطبيعة ونشوة الرسم. فقد كان التفكير بـ « سلمى » يشغل باله ، ويقطع عليه الاهتمامَ بأيّ أمر آخرَ .

جلس « شاكر » أمام لوحته ينظر إلى خطوطها فلا يرى منها شيئاً ... وبقيت الرّيشة في يده جامدةً خرساءَ ، لا تعبِّر ولا تنساب ، فيما كانت من قبلُ طيّعةً تطبع على القُماش أجملَ تعبير لما يراه أو لما يَجُول في خاطره !

وعلم « شاكر » أنّه يضيع وقته هَباءً إن هو بقي جالساً على تلك الحال ، لأنّ تفكيره كان منصبّاً على ذلك البيتِ ، وعلى صاحبته التي شغلت باله وأثارت اهتمامه .

وبحركة عفويّة وجد « شاكر » نفسه يتّجه نحو المنزل من غير تردُّد ، كأنّ ساقَيه طغتا على إرادته فقادتاه مسيَّراً وقد انعدمت فيه المقاومةُ ...

لمّا شاهد « شاكر » مضيفته بدا له أنّ وجهها قد

زاد شحوباً واكتئاباً. وشاهد ، إلى ذلك ، تلك الابتسامةَ الحزينة ترتسم على ملامحها .

كان « شاكر » قد صمَّم على استجلاء بعض الأمور خلالَ زيارتهِ . وكان يشعر بأنّه قادرٌ على مساعدة « سلمى » أو على مُؤاساتها في ظرْفِها العَصِيب . ألم تقل له في زيارته السابقة إنّها ترى فيه إنساناً كتوماً ، يُزيل بعضاً من تعاستها ؟ فهو ، إذاً ، عازمٌ على المُضيِّ في محاولته ، بعدما وجد في تصرّفها تشجيعاً واضحاً .

ويبدو أنّ « سلمى » شعرت بما يَكنُّه لها « شاكر » من صداقة ، ولمست رغبتَه في المساعدة ، ففتحت له قلبها خلال تلك الزيارة ، وأخبرته بما كان يريد معرفتَه عن مرضها وتعاستها :

كان لـ « سلمى » أخٌ في العشرين من عمره ، وكانت تعيش مع أخيها بعد موت والدَيها . ومنذ سنتين أصيب الأخ بمرض عُضالٍ ، وما لبث أن فارق الحياة

في الخريف . وانقضى عامٌ على موت الشقيق ، فإذا بـ« سلمى » تصاب بدورها بعوارضِ المرض الذي أودى بحياة أخيها . وهي منذ سنة أو أكثرَ لم تبرح المنزل قطُّ ، يعودها الطبيبُ مرّةً أو مرّتين في الأسبوع ، وتساعدها في شؤون بيتها ومعيشتها عجوزٌ تأتي إلى المنزل مرّةً كلّ أسبوع .

قصّت « سلمى » قصّتَها هذه باختصار . وكان « شاكر » يُصغي إليها باهتمام ، لا ينبس بكلمة ، واستطردت قائلة :

– منذ شهور اشتدّت عليّ وطأةُ المرض ، وأنا أشعر بأنّ أَجلي قد دنا . أنا واثقة من أنّني سأموت في الخريف كما مات أخي من قبلي . أنظرْ ، أترى هذه العريشةَ التي تغطّي جدارَ المنزل ؟ إنّني لا أنفكُّ أنظر إليها منذ أسبوعين ، مذ بدأتْ تتعرّى ، وتفقد أوراقها الواحدةَ تلو الأخرى ، فيتراءى لي أنّ تلك الأوراقَ التي تتساقط إنّما هي ما تبقّى لي من أيّامٍ

في هذه الدُّنيا ، تتوارى واحداً بعد واحد ، فأَقترب شيئاً فشيئاً من الموت المحتوم . فما إنْ تسقط آخرُ ورقة حتى أسقطَ أنا معها ! ليس هذا شعوراً قويّاً فحسبُ ، بل هو المرضُ يتفاقم ، ويشتدّ معه ضعفي ، فلا أجد إلى مقاومة المرض سبيلاً .

لم يكن « شاكر » يعلم أنّ المرض الذي تشكو منه « سلمى » كان مرضاً خطيراً يهدّد حياتها . فهو قد لاحظ شحوبَها ونحولها منذ اللّقاءِ الأوّلِ ، وآمنَ بأنّ حالها تدعو إلى بعض القلق ، ولكنّه لم يظنّ قطّ أنّ تلك الفتاةَ التي غدا يتردّد عليها ، ويشعر بعطف نحوها ، تُعاني من سَكَرات الموت .

بقي « شاكر » في منزل « سلمى » وقتاً طويلاً ، بعدما بات يشعر بأنّ روابط صداقةٍ متينة قد توطّدت بينه وبينها . وأفضى كلٌّ منهما إلى الآخر بسيرة حياته ، ماضيها وحاضرِها . ولّما آنَ لـ « شاكر » أن ينصرفَ ودّع « سلمى » قائلاً :

ـ لا تستسلمي يا « سلمى » ! فلربّما كنت مخطئةً في ما تظنّين. لا تفقدي الأمل في الشّفاء، فالطبُّ قد تقدَّمَ في أيّامنا هذه تقدّماً عظيماً. عليك أن تتذرّعي بالصبر، وأن تَلُوذي بالرّجاء. ولْيكنْ رائدَكِ في مرضك الكفاحُ المستمرُّ في سبيل الحياة...

خرج « شاكر » من بيت « سلمى » مغموماً، مُطْرِقَ الرأس، يفكّر بتلك الفتاةِ المسكينة التي طغى عليها المرضُ. وفجأة سمع صوتاً قريباً يقول:

ـ مرحباً يا أستاذ، كيف حالُك؟

كان ذلك الصوت صوتَ طبيب « سلمى »، فردّ « شاكر » تحيّتَه بِمثلها، وتابع سيره؛ ولكنّه ما لبث أن توقّف، واستوقف الطبيبَ وسأله:

ـ دكتور « سليمان »، هل لي أن أطرح عليك سؤالاً عن حال الآنسة « سلمى »؟ خرجت لتوّي من منزلها، وقد علمت منها أنّ مرضها خطير، وأنّ أيّامها معدودات! أحقاً أنّ مرضها بهذه الخطورة؟

ابتسم الطبيب وأجاب:

ـ إخالك غدوتَ و « سلمى » صديقين حميمين. لا بأسَ إن أنا أجبتُ عن سؤالك، فلن أُفضيَ، إن فعلتُ، بسرّ من أسرار المهنة! ألمشكلةُ بالنسبة لـ « سلمى » ليست المرضَ الذي تعاني منه، بقَدْرِ ما هي مشكلةُ عقدتها حِيالَ هذا المرض. لقد تُوُفّي أخوها منذ سنتين بعدما أصيب بالمرض الذي تعاني منه « سلمى » الآن. إنّه مرض إن لم يعالج بسرعة فقد يصيب بعض شرايين القلب فيقضي على المريض. ولكنّ الحال بالنسبة لشقيق « سلمى » كانت مختلفةً كليّاً. فالشابّ لم يكترث لما كان من أمر مرضه، وقد أهمل العلاج، فقضي عليه المرضُ. وأمّا « سلمى » فقد لاحقناها بالعلاج منذ أن بدأت تشعر بعوارض المرض، وحالتُها اليومَ لا تدعو إلى القلق الشديد أو اليأس. إلاّ أنّ العلاج في مثل هذه الحال طويلُ الأمَد، بطيء التأثير، يتطلّب من المريض تجلُّداً وصبراً. وقد شرحت لـ « سلمى » الواقعَ مراراً،

ولكنّها تصرّ على الاعتقاد بأنّها سائرة إلى موت محتوم، وكلّ ذلك بسبب الصدمة التي أُصيبت بها على أثر وفاة شقيقها، والتي لم تُشفَ منها بعدُ... لقد بلغ بها اليأسُ حدَّ القنوط، حتى أنّها منذ أسبوعين أو أكثر لا تبرح تتحدّث عن دُنوّ أَجلها. إنّها ترى مصيرها مرتبطاً بتلك العريشةِ التي تغطّي واجهة منزلها، وهي مقتنعة بأنّ كلّ ورقة تسقط إنّما هي يومٌ من أيّامها الباقية تمضي من غير عودة!

مضى «شاكر» بعد سماعه حديثَ الطّبيب، وقد تضاعف غمُّه وهمّه. وفي تلك العشيّة أوى إلى فراشه دامعَ العين شقياً. إنّه قلقٌ كلَّ القلق. بل إنّه يتألّم ويشعر بأنّ قلبه يكاد يتفطّر لكون «سلمى» لا تقاوم المرضَ، وتكاد تموت وهي في عمر الزّهور. وماذا يحدث بعد أسبوع أو أكثر عندما تسقط آخر ورقة من أوراق عريشة «سلمى»؟ ماذا يكون من أمر «سلمى» عندئذٍ، وهي التي تؤمن بأنّ مصيرها مرهونٌ بمصير تلك الأوراق الزّائلة؟

لقد غفا «شاكر» في تلك الليلةِ وهو كئيب تَعِس. ورأى في نومه حُلماً غريباً: تساقطت أوراق العريشة على حائط بيت «سلمى»، إلاّ واحدةً! وبات ينتظر سقوط تلك الورقة وقلبُه يقرع وعيناه تدمعان، وكأنّه أوشك أن يودّع صديقته وَداعاً أخيراً. ولكنّ الورقة الأخيرةَ بقيت عالقةً بغصنها كالطفلة تأبى أن تنسلخَ عن أمّها وتتشبّث بها بكلّ جوارحها. وحلم «شاكر» كذلك بأنّ الأيّام قد تعاقبت، وبقيت تلك الورقةُ الفريدة صامدةً، في الوقت الذي قضت فيه شقيقاتُها تحت وطأة الخريف... وحلم بأنّ «سلمى» كانت تنظر إلى تلك الورقة يوماً بعد يوم متعجّبةً من صمودها الفريد، وبأنّها تناست بعد فترة ما كان من شان العريشة وأوراقها، فتحسّنت حالها، ثم تعافت...

أفاق «شاكر» متأثّراً بما شاهده في منامه، فأعاد الحلمُ إلى نفسه الكئيب بعضَ الرّجاء. ولكنّ الواقع عاد ليُزيل بقايا الأمل الجميل: فالورقةُ الأخيرة

ستسقط لا محالةَ ! وعاد التساؤل الرّهيب يُقِضُّ عليه راحتَه : تُرى ، ماذا يحدث لـ « لسلمى » بعد سقوط الورقة الأخيرة ؟

إرتدى « شاكر » ثيابه بيدين مرتجفتين ، وكان يغدو ويجيء في غرفته يجرُّ خُطاه جرًّا ، شانه شأن إنسان يائس بات لا يكترث لما يجري من حوله .. وكان « شاكر » قد استعدّ للخروج ، ولكنّه توقّف فجاةً في وسط الغرفة ، وأطرق لحظةً يفكّر تفكيراً عميقاً . فقد خطرت بباله فكرةٌ طريفة ، وحلّ محلّ التساؤل الرّهيب تساؤلٌ من نوعٍ آخرَ : ماذا يحدث لو أنّ تلك الورقة الأخيرة بقيت بالفعل عالقةً إلى جِذْعها ؟ ألا يتبدّل موقف « سلمى » عندئذ كما تبدّل في الحلم الذي شاهده في تلك الليلة ؟ ولكنْ ، كيف يُبقي تلك الورقةَ في مكانها ؟ لم يطل الأمر « بشاكر » حتى وجد الجوابَ ... فابتسم ومشى إلى الباب بخطى ثابتة ...

***

في تلك العَشِيّةِ الباردة من عشايا تشرين تسلّل « شاكر » من غرفته ، وكان البدر قد استقرّ في كبد السماء نيِّراً مبتسماً . سار « شاكر » خفيفَ الخطى ، يحمل في يده أدواتِ الرسم ...

وصل إلى بيت « سلمى » والليلُ قد خيَّم والهدوء قد ساد ، فلم يرَ في المنزل نوراً أو يسمعْ حركةً . تسلّقَ ساق العريشة بخفّة حتى بلغ أعلاها . وعلى حجر من حجارة الحائط المَلْساء راح يرسم أجملَ ورقة عريش يتصوّرها إنسان ، بتقاطيعها وحروفهـــا وعروقها ونَضارتها . وفيما هو منصرفٌ إلى عمله الدقيق ، يعتني برسم ورقته كلَّ العناية ، إذا بالورقة الأخيرة تنفصل عن أمِّها ... سقطت الورقة الأخيرة و« شاكر » يُضفي على ورقته آخرَ اللمَسات ، فابتسم وهو يواكب الورقة الساقطة ، تعلو وتهبط في مهبّ الريح ، قبل أن تستقرّ على الحضيض مَيْتةً بين رفيقاتها ...

أنهى « شاكر » عمله ونظر إلى الورقة التي رسمها

على الحائط ، فإذا هي آيةٌ فنيَّة على الرغم من بساطتها ، وإذا هي حيّة بالغة النضارة والحياة . وخُيّل لـ« شاكر » أنّ تلك الورقة الرائعة التي خطّها بريشته وألوانه ورقةٌ سحريّة لم يرَ مثيلاً لها بين ورقات العريش . وسرت النّشوةُ في عروقه ، وغمرت السعادةُ قلبه ، فانحدر من مكانه خِلْسةً كما جاء ، وعاد إلى غرفته .

ولأوّل مرّة منذ أيّام طويلة ، حافلةٍ بالقلق والحزن ، نعم « شاكر » براحة البال والنّوم الرّاغِد !

إنبلج الصباحُ ، وأطلّت الشمس تُدفّىء بأشعّتها مفاتنَ تشرين الباردةَ . ولم يُطق « شاكر » صبراً ، فارتدى ثيابه وتوجّه إلى منزل « سلمى » . ولمّا قرع باب المنزل لم تأتِ « سلمى » لتفتحَ له كالمعتاد ، بل سمع صوتها يدعوه للدخول ، ففتح الباب ودخل . رآها جالسةً على مقعد وقد دفنت رأسها في راحتيها وراحت تحدّق إلى بقعةٍ خضراء على الحائط . قالت « سلمى » :

ـ « شاكر » ، أنظرْ ، أترى تلك الورقةَ على العريشة

المستندة إلى الجدار هناك ؟ لقد شاهدتها أمسِ وكنت أعتقد أنّها ستسقط اليومَ كما سقطت صديقاتها من قبلها . إنّ أمرها لعجيبٌ ، أنظرْ ! ألا ترى أنّ خضرتها ونضارتها عجيبتان ؟ أنا لم ألحظ هذا الأمرَ من قبلُ ، لأنّ الأوراقَ تتساقط في الخريف بعدما تصفرّ وتكاد تيبس . وأمّا هذه فمختلفةٌ تماماً ، كأنّ دماً جديداً قد بُعث في عروقها فأبقى على الحياة فيها . ألا ترى ما أراه يا « شاكر » ؟

ـ بلى يا « سلمى » ! إنّها بالفعل ورقة عجيبة ، كأنّها أبت أن ترضخ لمصير مثيلاتها ، فتعلّقت بجذع أمّها كما يتعلّق الإنسان بخيوط الرّجاء . إنّه لَمثَلٌ رائع نتعلّمه من هذه الورقة التي واجهت عَوادي الطّبيعة ، والتي تحدّت شريعةَ المنطق كي تبقى مزهوّةً بهيّة كأنّها في رَيعان صباها ...

ثمّ أطرق الاثنان معاً . ومضت دقائق طويلة لم ينبس خلالها أحدُهما بكلمة . ورأى « شاكر » على وجه

« سلمى » ابتسامةً عذبة أشرق بها وجهُها . لم تكن
تلك الابتسامةُ كابتساماتها الباهتة التّعبة التي
عهدها فيها من قبلُ ، تستقبله بها وتودّعه ، إنّما هي
ابتسامة صادقةٌ تعبّر عن مشاعرَ داخليّةٍ هي أبعدُ
ما تكون عن مشاعر اليأس والاستسلام ... ولأوّل مرّة
شعر « شاكر » بأنّ « سلمى » تحيا . لقد رأت في ظاهرة
الورقة الأخيرة ، تلك الورقة العجيبة ، سبباً يدعو إلى
الرّجاء ، فتبدّلت حالها ، وتغيّر موقفها ، ونسيت لفترة
ما كانت عليه من يأس وقنوط ... إنّها لَمُعجزة !
وإنّ ما يراه أمامه في تلك اللحظة من تحوّل في حال
« سلمى » يدعو إلى التفاؤل الكثير ، ويشير بوضوح إلى
أنّ المعجزة قد بدأت تتحقّق ...

بعد ساعات نهض « شاكر » وودّع « سلمى » مستأذناً
بالانصراف ، والتقى نظره نظرَها ، فتعانقت عيونُهما
عناقاً طويلاً صامتاً ، وخفق قلباهما خفقاناً عجيباً ،
بعدما قرأ كلٌّ منهما في نظر صاحبه ما لم يقرأه من
قبلُ من معانٍ سامية ... عندئذ أدرك الاثنان أنّ

ذلك الحديثَ الصامت كان حديثاً صافيَ النّبرات ،
حديثَ القلبَ للقلب ، حديث المُحبّين ...

وتمضي الأيّام و « شاكر » في وضعِ ترقبٍ قلق ،
يخاف أن يجِدّ جديدٌ فتعودَ الفتاةُ إلى سابق
عهدها .

وذاتَ صباح أقبل « شاكر » يقرع باب « سلمى » ،
ففتحت له الفتاةُ . وبدلاً من أن تبادرَه بالترحيب
والابتسام الحزين كالمعتاد ، وضعت يديها على خاصرَتيها
وأطلقت قهقهةً عالية حتى كادت تقع من فرط
الضحك !..

كانت أيّام طويلة قد مضت على رسم « شاكر »
الورقةَ الأخيرة ، و « سلمى » ممعنة في الاعتقاد بأنّ
بقاء الورقة كان ضرباً من ضروب المعجزات . حتى
خامرها الشكُّ يوماً ، فاقتربت من الورقة تتفحّصها
عن كثَب ، فاكتشفت سرّها !..

تقدّمت « سلمى » من « شاكر » وأخذت يديه في راحتيها وضغطت عليهما ، فيما تلألأت في مُقْلَتَيها عَبَراتٌ صافية ...

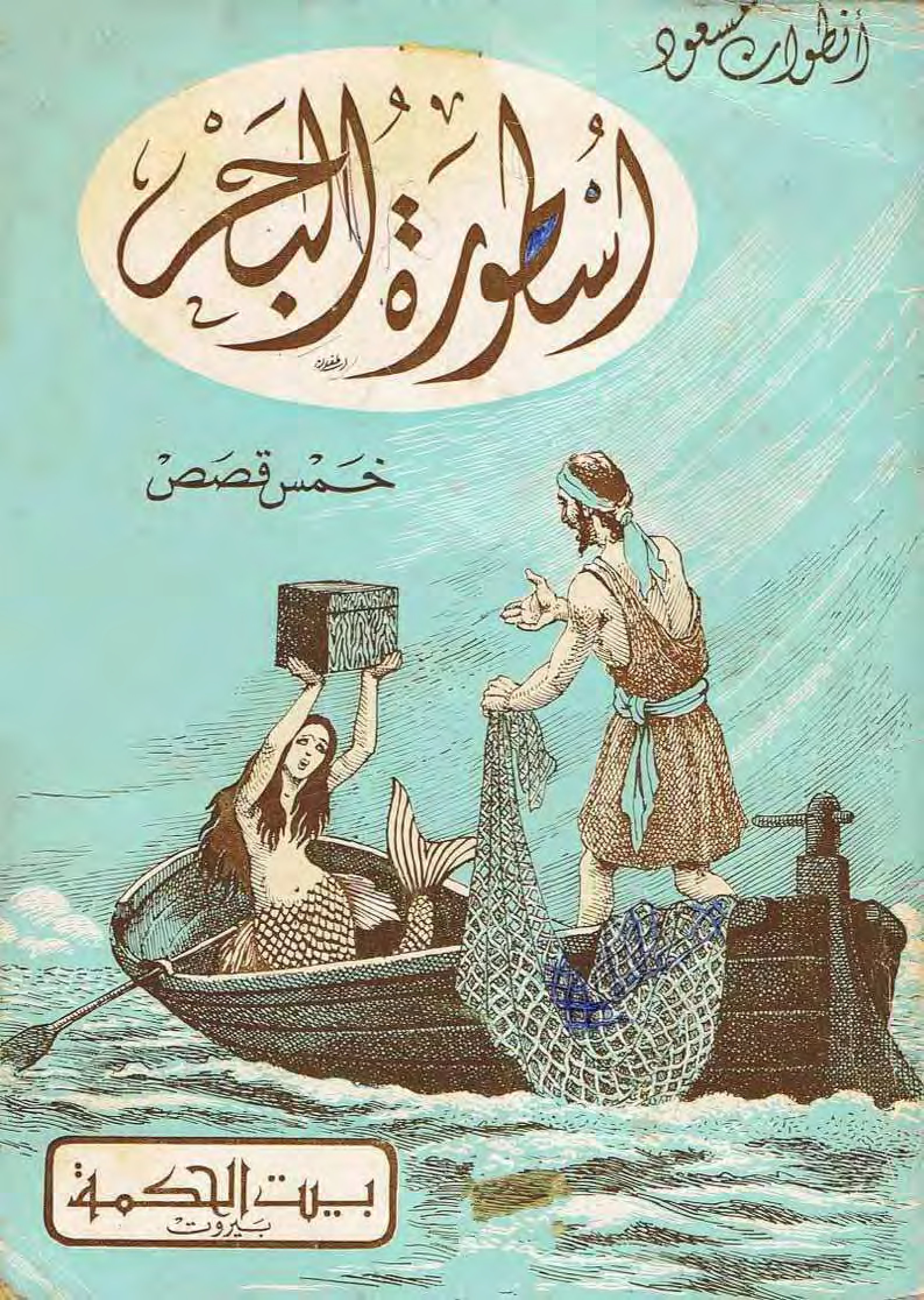
لقد كانت تلك وسيلةَ « سلمى » في التعبير عن شكرها لـ « شاكر » ، وهو أعظم شكر لأعظم هَديّةٍ ، هديّة الأمل في الحياة لمن كاد يفقد كلّ أمل في الحياة ..

(مستوحاة من أوهنري)

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ١٥ آذار (مارس) ١٩٨٠
على مطابع دار غنـــدور ش.م.م.
بــيروت

١٤٩/٣ – ١٩٨٠



أنطوان مسعود
أسطورة البحر
خمس قصص
بيت الحكمة
بيروت